مقدمة

الدكتور عبد المنعم رشاد
عميد الكلية

ومما لاريب فيه ان البحث العلمي ركن اساسي من اركان الدراسة الجامعية . اذ يجب ان يسير هو والتدريس جنباً الى جنب في دفع عجلة الجامعة العلمية . والبحث العلمي يظهر طابع وشخصية المؤسسة التي تقوم به . وعن طريق هذا البحث تقدم الجامعة ما تجود به افكار منتسبيها من علوم وفنون وآداب الى الوطن ليتم التقدم عن طريقه وبوساطته . وما احوج مجتمعنا الى مثل هذه الابحاث العلمية التي يمكن ان تقوم بها الجامعة من اجل نهضة علمية تبعث روح التحرى والتتبع وتشجع النقد البناء وحب الاستطلاع في نفوس ابنائه حتى تنتقل من مرحلة النقل والتقليد الى مرحلة الابتكار والابداع .

وفي مجتمع يسعى الى بناء كيانه على اسس ركينه وجب على مؤسساته العلمية ان تعني بالبحث في مشاكله وان تتناول تراثه الثقافي بالبحث والتمحيص اضافة الى البحوث المجردة . وان كان البحث عن الحقيقة لذاتها هدف جليل فان البحث في مشاكل البيئه التي توجد فيها المؤسسة العلمية وبتراثها الحضارى لهو اسمى هذه الاهداف .

ومن اجل هذا كله حرصت كلية الاداب ـ على الرغم من حداثة سنها ـ على ان تعني كل العناية بالبحث العلمي على قدر ما تتيحه لها امكانياتها المحدودة . اضافة الى اهتمامها بالتدريس

وبدفع الطلبه الى الاستزادة من العلم والمعرفة .
وفي هذا العدد الاول من مجلة آداب الرافدين لايسعني الا ان انوه بالجهود المحمودة التي قدمها اساتذة الكلية منذ نشاتها وحتى الان من اجل السير بالتدريس والبحوث في الطريق القويم لاظهار هذه الكلية بالمستوى الجامعي اللائق في مجتمع متطور وفي زمن تسارعت فيه العلوم الانسانيه نحو التطور والشمول .
وفي الختام اسجل شكري وتقديري للجنة تحرير المجلة على الجهود الطيبة التي بذلتها لاخراج هذا العدد بالشكل الذي هو عليه .



كتب وسيكتب الكثير عن سقوط الخلافة العباسية وعن احتلال المغول لبغداد لما لهذا الحدث من اثار خطيرة على التاريخ الاسلامي – العربي من جهة وعلى التاريخ العالمي من جهة اخرى . وبالرغم من اهمية هذا الحدث الا انه لم يدرس دراسة مفصلة وافية الى الان على كثرة ما هو متوفر لدينا من معلومات اولية عنه .

ان ضعف وسقوط الدولة العباسية لم يكن وليد وقته او نتيجة لغزو التتر فقط . ولكن الضعف في اوصال هذه الخلافة كان بعيد الجذور تاريخياً وقد بذل بعض الخلفاء جهودا محموده من اجل تقوية كيان الخلافة العباسية من امثال الناصر لدين الله «٥٧٥ – ٦٢٢ هـ» وحفيده المستنصر «٦٢٢ – ٦٤٠ هـ» الا ان جهودهما كانت محدوده الاثر كما انها جائت متاخرة فلم تستطيع ان تبعث الحياة الى الاوصال المحطمة لهذه الدولة فقد كانت المنازعات الداخلية بين الطوائف الدينية تنهش فيها داخليا كما ان سيطرتها الخارجية على بقية العالم الاسلامي الممزق – كانت اسمية فقط . فقد كان هم الامراء المسلمين هو الحصول على التقليد من الخليفة مقابل ان يذكر اسم الخليفة في الخطبة وفي السكة دلالة على تبعيتهم له ظاهرياً فقط وحصولهم على التقليد كان من اجل اثبات شرعية حكمهم في اعين رعاياهم .

وكانت الاضطرابات الداخلية المستمرة في بغداد قد انهكت قوى الدولة واقلقت بالها ووجهت انظار الخلفاء الى الداخل اكثر من توجيه اهتمامهم الى الخارج مما جعل انهيارها امرا لا مفر منه .

والمقال التالي سوف لن يعالج اسباب سقوط الخلافة حيث ان المؤلف قد عالج هذا الموضوع بتفصيل في دراسة مستقلة «ستطبع قريبا» بل سيركز على العمليات الحربية التي قام بها المغول من اجل احتلال بغداد . ودراسة للاستراتيجية العسكرية المغولية وفنون التعبئة عندهم .

مما لاشك فيه فان توسع المغول زمن جنكيزخان في شرق اسيا كان سريعا جدا فقد اكتسحوا الصين ثم اتجهوا غربا نحو تركستان وما وراء النهر مكتسحين الدولة الخوارزمشاهية بسهولة ويسر فاصبحت ايران مفتوحة امامهم ولم يعد فيها من حاكم قوى ولا دولة موحدة تستطيع الصمود امام هذا التيار الهائل فسيطروا على معظم اجزاء ايران مع اجزاء مهمة من جنوب روسيا . وعندما اصبح «منكوقان» حفيد جنكيزخان خانا على جميع المغول وجه اخاه هولاكو لاكمال ماقام به المغول سابقاً من اكتساح العالم الاسلامي فقام هولاكو بالسيطرة على ما تبقى من ايران واستطاع حيث فشل غيره تحطيم قلاع الاسماعيلية واحتل عاصمتهم الموت عام «٦٥٤ / ١٢٥٦» وتمكن من القضاء على دولتهم وقتل امامهم ركن الدين خورشاه . وقد تم هذا الانتصار بمساعدة نصير الدين الطوسي وزير ركن الدين خورشاه واصبح نصير الدين بعد ذلك

اليد اليمنى لهولاكو ووزيراً له «١» . وبعد ان استتب الامر لهولاكو في ايران وجه همه نحو العراق واراد احتلاله باي ثمن كان فاخذ باعداد العدة وتهيئة سبل القتال والتقدم . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي تعرض فيها العراق للغزو المغولي فقد سبقت هذه الحملة حملات استطلاعية متعدده كانت اولاها عام ٦١٨ . في زمن الناصر لدين الله وتجددت الغارات في زمن المستنصر والمعتصم الا انها كانت غارات استطلاعية من جهة ومن اجل النهب والسلب والحصول على الغنائم من جهة اخرى اكثر مما كانت تستهدف الفتح المنظم الهادف .

الا ان حملة هولاكو كانت على العكس من ذلك كانت تهدف الى الفتح والسيطرة لهذا لم تتصف بالسرعة او بالهجوم الخاطف بل قام هولاكو باعداد حملة كبيرة منظمة ومستعدة للقتال استعداداً هائلا .

فلما توافرت الاخبار بوصول هولاكو الى اذربيجان قاصداً العراق ترددت رسل الخليفة الى الشام طالبا من الامراء الايوبيين مساعدته على صد المهاجم حتى ان المستعصم طلب من الملك الناصر داود ان يصالح الملك المعز وان يتفقا على حرب المغول

---

(١) عن احتلال المغول لقلاع الاسماعيلية انظر ابن العبري ـ مختصر تاريخ الدول . تحقيق الاب صالحاني ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ ، وابن الفوطي ـ الحوادث الجامعة تحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٣٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٤

يلاحظ المستشرق Brown ملاحظة طريفة عن نصير الدين الطوسي فيقول « ومن الغريب في الامر ان هذا الخائن كان مؤلف كتاب من اوسع الكتب انتشاراً في علم الاخلاق » .

E. G. Brown , A Literary History of Persia , vol. 2 , P. 457.

فوافق الملك الناصر على ذلك «١» ويذكر اليونيني ان الخليفة عندما علم بقدوم التتر اضطر الى «الانتصار بكل احد» «٢» وقد لقيت استنجادات الخليفة بامراء الشام صدى لاباس به فقد توجه الملك الناصر داود في جماعة من اولادة الى العراق الا ان الخليفة اشار عن طريق رسوله الباذرائي اليه بالا قامة على حدود العراق «في قرقيسيا» الى ان ياذن له الخليفة بالدخول الى العراق ولكن الخليفة لم ياذن لهذا الامير بالدخول مما جعل الامير يمل من الانتظار ويعود الى الشام ومنها الى سيناء «٣» فهل كان الخليفة ياترى حذرا من دخول اي قوة مهما كانت غايتها خوفا على سلطانه من جهة واشعار للغير بقوته التي لا تحتاج الى اية مساعدة من جهة اخرى ؟ من هذا نلاحظ ان الخليفة المستعصم بالله لم يال جهدا — عندما سمع بتقدم هولاكو نحو العراق — في سبيل استنهاض همم امراء الاسلام لتوحيد شملهم للوقوف امام الغزو المغولي . كما اهتم بتجنيد الجند للدفاع عن بغداد . يقول رشيد الدين :

---

(١) - الذهبي - تاريخ الاسلام ج ٢٠ - ورقة ٢٠٩ / أ مخطوطة ابا صوفيا ٣٠١٢ انظر السبكي - طبقات الشافعية ، ح ٥ ص ١١٣ .

(٢) - اليونيني - ذيل مرآة الزمان - ح ١ ص ١٧٣ حيدر اباد ١٩٥٤

(٣) - الذهبي تاريخ الاسلام ح ٢٠ ورقة ٢١٠/ ب انظر كذلك الفرائد الجلية في الفرائد الناصرية — مجموعة رسائل الناصر داود — ورقة — ٥ مخطوطة ابا صوفيا ٤٨٢٣ واليونيني ذيل ح ١ ص ٥٣

انه قد عقد اجتماع في دار الوزير حضره امراء بغداد وعظماؤها مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كره ومجاهد الدين الدواتدار الصغير . واخذوا بشرح الوضع ذاكرين سوء سياسة الخليفة وانه صديق المطربين والمساخرة وعدو الجيش وقد ابدى سليمان شاه رايا بوجوب الاستنجاد وتهيئة القوة للحرب وان عليهم المقاومة . وقد سمع الخليفة بما ادلى به سليمان شاه فامر بتجنيد الجند واوكل امرهم الى سليمان شاه «١»

اما رأي الوزير ابن العلقمي فقدكان على العكس من رأي القادة العسكريين كان يرى ان خير وسيلة لايقاف هولاكو عن تقدمه هي استرضاؤه سلميا بالهدايا واظهار الخضوع له وقد ترددت الرسل بين هولاكو وبغداد . يقول نصير الدين الطوسي في رسالته عن فتح بغداد ان هولاكو عندما تقدم لحرب الاسماعيلية طلب من الخليفة ارسال نجدة لمحاربة الملاحدة الا ان الدواتدار الصغير رفض هذا الطلب موضحا للخليفة ان قصد هولاكو هو اخلاء بغداد من الجند حتى يسهل عليه فتحها والاستيلاء عليها لهذا لم يرسل الخليفه احداً الى هولاكو .

---

(١) :- رشيد الدين جامع التواريخ ح ٢ قسم ١ - ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . الترجمة العربية سليمان شاه احد زعماء عشائر الايفارية التركمانية . كما كان قائداً بارزاً من قواد الخليفة المستعصم بالله . وقد كبد المغول خسائر فادحة في غربي ايران وفي اذربيجان عند تقدم المغول اليها . انظر منهاج - ي - سراج ، طبقات - ي - ناصري ، الترجمة الانكليزية ح٢ - ص ١٢٢٦ - ١٢٢٨ .

مجاهد الدين الدوتدار الصغير كان اكثر قادة الجيش العباسي نفوذاً في زمن المستعصم بالله والدويدار او الدوادار او الداواتدار تعني حامل الدواة وهي من الالقاب العباسية المهمة انظر E. I/2 S. V. Dawadar, (by D. Ayalon) .

وبعد ان تم للمغول اخضاع قلاع الملاحدة ارسل هولاكو رساله أخرى الى بغداد يلوم فيها الخليفة على عدم المساعدة فاستشار الخليفة اعيان دولته فاشار عليه الوزير ابن العلقمي باسترضاء هولاكو بالمال والتحف والهدايا الا ان الدواتدار رفض هذا الراي مبينا فيه ان الوزير متواطيء مع هولاكو والاصح هوعدم ارسال شي الا القليل من الهدايا فقط فغضب هولاكو من هذا وطلب من الخليفة ان يقدم بنفسه وان لم يأت هو يجب ارسال احد ثلاثة اما الوزير اوالدواتدار الصغير او سليمان شاه . فلم يرسل الخليفة احد من هؤلاء بل اكتفى بارسال محي الدين بن الجوزي رسولا عنه «١» اما الذهبي فيذكر بان هولاكو في رسالته هذه طلب المفاوضة مع الدواتدار وسليمان شاه «٢» من هذا نلاحظ ان الوزير ابن العلقمي كان من المنادين بوجوب المصالحة مع هولاكو وبذل الاموال له واسترضائه حتى لايهجم على بغداد بينما كان الدواتدار وسليمان شاه من انصار الحرب وعدم الاستسلام. فهل ياترى لهذا السبب اتهم ابن العقلمي بالخيانة ؟ وما هو

---

(١) – نصير الدين الطوسي ـ كيفيت واقعة بغداد ، تحقيق محمد قزويني ـ منشورة في ذيل كتاب جهان كشاي – عطا ملك جويني ج ٣ لندن ١٩٣٧ ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، انظر ابن العبري – مختصر ، ص ٤٧١ – ٤٧٢ .

(٢) – الذهبي ـ تاريخ الاسلام ـ ج ٢٠ لورقة ٢١٠ – ٢١١ ؛ اما ابن تغرى فيذكر ان هولاكو « ارسل الى الخليفه يطلب اما الدويدار الصغير او ولد الدويدار الكبير او سليمان شاه فلم يفعل وارسل شرف الدين بن الجوزي » الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ . اما « ولـــد الدويدار الكبير » فهو ابن تاج الدين الدوتدار الكبير وكان من رؤساء الجند وذا مكانة عسكرية بارزة في بغداد ـ رشيد الدين ـ جامع التواريخ ـ ج٢ قسم١ ص ٢١٠ . الترجمة العربية ، القاهرة – دار احياء الكتب العربية .

سبب ميله الى الاستسلام بدون حرب ؟ هل كان الوزير عالما بضعف دولته وعدم مقدرتها على الوقوف امام هجمات المغول ؟ ام كان الوزير على اتفاق سري مع هولاكو واراد عدم التعرض له بحرب ؟ ولهذا نرى هولاكو يؤكد في رسالته على وجوب التفاوض مع الدواتدار وسليمان شاه وهم من الد اعداء الوزير والمنادين بالحرب وما ذهابهم الى هولاكو الا انه سيلقي القبض عليهم لان المغول لايرعون عهدا ولا ذمة وهكذا كان في بغداد حزبان متعارضان في موقفهم من المغول حزب ينادي بوجوب المهادنة واستعمال الوسائل السلميه لرد المغول وتجنب الدخول معهم بحرب كانت معروفة النتائج وكان على راس هذا الحزب الوزير ابن العلقمي . وحزب ثان كان يرى الحرب والمقاومة هي الوسيلة الناجحة في رد المغول على اعقابهم وانقاذ الخلافة من خطرهم وكان على راس هذا الحزب قواد جيش الخليفة البارزون وهم الدواتدار الصغير وابن الدواتدار وسليمان شاه وموقف هؤلاء العسكريين كان امراً طبيعيا لان مجرد التلويح بالصلح والاستسلام للعدو كان يعني الطعن والمساس بقدرتهم العسكرية وقوتهم وهي امور لايستسيغها العسكريون في كل زمان ومكان .

واخيرا رجحت كفة العسكريين ورفض الخليفة الاستسلام لهولاكو والاستماع الى نصيحة الوزير ابن العلقمي فاكتفى بارسال رسوله محي الدين بن الجوزي للتفاوض مع هولاكو الذي لم يرض عن هذا الوفد بل استشاط غضبا وارسل يطلب من الخليفة ان يهدم اسوار مدينة بغداد وان ياتي بنفسه امام

الخان ليرضى عنه وقد رفض الخليفة هذا الامر طبعا «١» وهكذا اصبح تقدم هولاكو نحو بغداد امرا محتما بسبب فشل المراسلات للوصول الى حل سلمي بين الطرفين .

وكان هولاكو بجانب تهيواته الحربية كان يعد العدة من اجل السيطرة على العراق وبغداد عن طريق بث الجواسيس وارسال الرسل بصورة سرية الى اشخاص كان يمكن ان يساعدوه في بث الرعب داخل بغداد وفي تثبيط الهمم لاضعاف مقاومة البغداديين «٢» . وعندما صمم هولاكو على قصد بغداد طلب من حسام الدين المنجم الذي كان مصاحبا له بامر القاآن أن يبين له الطالع فاخبره بانه ليس ميمونا قصد اسرة الخليفة والزحف على بغداد واذا اصر هولاكو على الذهاب فستظهر ستة انواع من الفساد : هي ان تنفق الخيول كلها ويمرض الجنود وان الشمس لا تطلع وان المطر لاينزل وتهب ريح صرصر وينهار العالم بالزلزال ولا ينبت النبات في الارض وان الملك الاعظم يموت في تلك السنة . وقد طلب هولاكو من نصير الدين الطوسي رايه في الامر وفي ما تقول النجوم فاخبره الطوسي بانه « لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث بل العكس فان هولاكو خان سيحل محل الخليفة » وبين له فساد هذا المعتقد وشجعه على الزحف الى بغداد «٣» .

---

(١) – E. Bretschneider, Medieval Research from Eastrern Asiatic Sources, London, 1910 vol 1 , P. 118

(٢) – الذهبي دول الاسلام – ح ٢ ص ١٢٢ ، تاريخ الاسلام ح ٢٠ الورقة ٢١٠ / أ والسبكي – طبقات الشافعية – ح ٥ ص ١١٤ .

(٣) – رشيد الدين – جامع التواريخ – ح ٢ قسم ١ – ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

« تحرك هولاكو نحو بغداد »

وكانت استعدادات المغول ضخمة فقد جند هولاكو عددا كبيرا من الجند للقيام بمغامرته هذه «١» وامر العديد من قواده البارزين بالتحرك لهذا الغرض . فامر جيوش جرماغون وبايجونويان اللذين كانت مراكزهما في بلاد الروم ان يسيرا على ميمنة جيشه وان يتقدما الى الموصل عن طريق اربل ثم تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد وان ترابط هناك في وقت معين حتى اذا قدمت الرايات من المشرق تخرج اليها من تلك الناحية .

وينضم الامراء «بلغا بن شيبان بن جوجي» و «توتار بن سكنقور بن جوجي» و «قولي بن اوردة بن جوجي» و «بوقا تيمور» و « سونجاق » الى الميمنة ايضا اما قوات كيتو بوقانويانوقدسون وترك ايلكا فتكون في الميسرة . اما هولاكو فقد بقي في القلب مع امراء كبار من امثال كوكا ايلكا وارقتو وارغون اقا «٢» .

وعندما بلغ اسد آباد اوفد رسولا لدعوة الخليفة مرة اخرى للحضور فكان الخليفة يماطل ويتعلل ووصل ابن الجوزي

---

(١) :- يذكر ابن كثير ان عدد الجيش المغولي المتجه لبغداد كان يقرب من مائتي الف مقاتل . البداية والنهاية - ج ١٣ - ص ٢٠٠ ويذكر نفس الرقم ابن حبيب في درة الاسلاك في دولة الاتراك . مخطوطة يني جامع رقم ٨٤٩ الورقة ٤٦ . اما ابن الفوطي فيذكر بان هولاكو سار نحو بغداد . بجيوش تملأ الفضاء . الحوادث الجامعة ص ٣٢٢ . اما ابن الطقطقي فيذكر فلما وصل العسكر السلطاني - جيش بايجونوين - الى دجلة وهو يزيد على الثلاثين الف فارس) الفخرى ص ٤٥٣ .

(٢) :- رشيد الدين - جامع التواريخ ٢٨١ - ٢٨٢ .

الى ديور للمرة الثانية قادما من بغداد يحمل رسالة بالوعد والوعيد ومتلمسا ان يعود هولاكو ويتراجع في مقابل ان يسلم الخليفة لهولاكو كل ما يطلبة من اموال وتحف . فظن هولاكو ان الخليفة يربد من وراء عودة الجيوش ان يعد جنوده ويهيئهم لمقاومة المغول . فقال . « وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق . سوف نعود بعد الحضور للقائه والتحدث معه » . «١»

وفي شهر شوال سنه ٦٥٥- ١٢٥٧ تحرك هولاكو من همدان مجهها الى العراق«٢» وفي طريقه ارسل رساله الى بغداد يقول فيها « اذا كان الخليفة قد اطاع فليخرج والا فليتاهب للقتال وليحضر الينا قبل كل شي الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليسمعو ما نقول » «٣» .

وفي التاسع من ذي الحجة ٦٥٥ - ١٢٥٧ وصل هولاكو شاطيء نهر حلوان وعسكر هناك وبقي الى الثاني والعشرين من ذللك الشهر «٤» وفي حلوان وضع هولاكو كافة مؤنه وثقله «٥»

---

(١) .- رشيد الدين – جمع التواريخ ص ٢٨٢
(٢) .- نصير الدين الطوسي - ذيل - ص ٢٨٢ .
(٣) رشيد الدين - ص ٢٨٤
(٤) - رشيد الدين ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٥) .- نصير الدين الطوسي ص ٢٨٤ .

وعندما علمت بغداد بتقدم هولاكو سار جيش بقيادة الدواتدار وابن كرمن بغداد وعسكر على مقربة من بعقوبة «١» التي تبعد ٣٠ ميلا شمالي بغداد . الا ان الخليفة أمر الدواتدار وبقية امراء الجيش عندما علم بقدوم جيوش المغول الى غربي بغداد بالتوجه لملاقاتهم فعبروا دجلة لملاقاة المغول «٢» وقد اشتبك جيش الخليفة بجيوش المغول التي كانت تحت قيادة سونجاق وبوقا تيمور في حدود الانبار على باب قصر المنصور على بعد تسعة فراسخ عن بغداد «٣» وقد مني المغول بخسارة فادحة على يد الدواتدار وابن كر وقد قتل من المغول عدد كبير وحملت رؤسهم الى بغداد «٤» للاحتفال بالنصر . وقد تمادى الدواتدار بانتصاره هذا فاخذ بمطاردة المغول وقد اشار عليه الامير فتح الدين بن كر بان يبقى في محله خوفاً من الوقوع بكمين وحتى لا يبتعد عن بغداد كثيرا الا ان الدواتدار لم يستمع لهذه النصيحة فادركه الليل بعد ان تجاوز نهر دجيل . وهناك تصدت لهم قوات المغول بعد ان اجتمعت قوات سونجاق وبوقا تيمور بقوات بايجونوين «٥» وفي صباح اليوم التالي ـ كان يوم

---

(١) :ـ نصير الدين الطوسي ـ ص ٢٨٥ ـ رشيد الدين ص ٢٨٥ .
(٢) :ـ ابن الفوطي ـ ص ٣٢٣ .
(٣) :ـ رشيد الدين ص ٢٨٥ .
(٤) :ـ ابن الفوطي ص ٣٢٤ .
(٥) — Bar-Hebreaus. The Chronography of ......vol . 1, PP.429 - 30

الخميس نهار عاشوراء – اي العاشر من المحرم سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ حملت عليهم عساكر المغول وقاتلوهم قتالا شديداً فلم تستطيع قوات بغداد الصمود فانكسرت وكروا راجعين الى بغداد فوجدوا ان فرعا من فروع نهر دجيل قد فاض في الليل وملا الصحراء فعجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه وقد قتل عدد كبير من جيش بغداد كما قتل الامير ابن كر والامير قراسنقر «١» اما الدواتدار فقد فر هارباً مع نفر من جيشه ودخل بغداد «٢» .

وفي يوم الثلاثاء منتصف المحرم من السنة قدم بوقا تيمور وبايجو وسونجاق الى بغداد واستولوا على الجانب الغربي «٣» ونزل بايجونوين في محلة القرية مقابل دار الخلافة تماماً «٤» وكان هذا الجزء من بغداد قد خلى من اهلة حيث التجئوا الى بغداد الشرقية ومن هناك اخذ المغول بالرمي بالنشاب الى الجانب الشرقي فكانت السهام تصل الى الدور الشطانية «٥» .

وقد تحرك هولاكو من خانقين حيث ترك معسكراته وواصل سيره الى بغداد ونزل في الجهة الشرقية منها في اليوم الحادي

---

(١) – نفس المصدر الى عد وانظر كذلك ابن الفوطي ص ٣٢٤ . ويضيف رشيد الدين ص ٢٨٥ انه قتل في هذه الموقعة ٠٠٠ و١٢ جندي من ه كر بغداد فضلا عمن غرق او قضى نحبه في الوحل .

(٢) :– انظر ابن الفوطي – ص ٣٢٤ . رشيد الدين ص ٢٨٦ .

(٣) :– رشيد الدين ص ٣٢٥

(٤) :– ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٩ . وانظر كذلك ابن الطقطقي . الفخرى ص ٤٥٤ .

(٥) :– ابن الفوطي – ص٣٢٥ .

عشر من المحرم سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ واحاط بجيشه الضحم جميع جهات بغداد الشرقية «١» وحال وصوله امر ببناء سور حول بغداد وحفر خندقاً ايضا ليقي عسكره من هجمات جيش بغداد . وبنى المغول سوراً اخر في بغداد الغربية ونصبت المنجنيقات بازاء سور بغداد من جميع الجوانب كما رتبوا العرادات والات النفط «٢» . ويعطينا ابن الفوطي وصفاً شيقاً لهذا السور الذي بناه هولاكو فيقول « فامر بحفر خندق وبنى بترابه سور محيط ببغداد وعمل له ابواب روثب عليها امراء المغول وشرعوا في عمل ستائر للمناجيق ونصبوا المناجيق والعرادات واستظهروا غاية الاستظهار والناس يشاهدون ذلك من السور» «٣»

وقد احتاط هولاكو. بالاضافة الى الطوق الذي وضعه حول بغداد من البر. ان يمنع الهرب بالسفن في دجلة فوضع جسراً تحت بغداد ليمنع من ينحدر الى واسط فعقد هذا الجسر تحت قرية العقاب، ولم يعلم به اهل بغداد. فكانت السفن تصل اليه وكان المغول ياخذون من بها ويقتلونهم فقتل عنده خلق كثير «٤»

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . اما ابن الفوطي فيضع تاريخ وصول هولاكو الى بغداد يوم الثاني عشر من المحرم . ابن الفوطي ص ٣٢٥ . اما نصير الدين الطوسي فيضع تاريخ وصوله بمنتصف المحرم رسالة نصير الدين في فتح بغداد ص ٢٨٦ . اما ابن الطقطقي فيضع تاريخ وصول هولاكو بيوم الخميس رابع محرم . الفخرى ص ٤٥٤ . والارجح هو مذكرة رشيد الدين .

(٢) :- ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ص ٤٦٣ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٦ .

(٣) :- ابن الفوطي . ص ٣٢٥ انظر الكازروني مختصر التاريخ - مخطوطة - مكتبة خزانة ١٦٢٥ - استانبول - الورقة ٩٠ /أ .

(٤) :- ابن الفوطي ص ٣٣٦ .

اما بغداد فقد استعدت للحصار ونصبت المناجيق على السور الا انها «لم تصح ولا حصل بها انتفاع ».«١» ويقول الكازروني عن وضعية الدفاع في بغداد . «واما عسكر البغادده فانهم وقفوا على السور ونصبوا مناجيقهم وشرعوا في الرمي فلم يصيبوا شيئاً ولا تعداهم حجر وتعطلت العرادات وغيرها وتقدم الخليفة باقامة جماعة من الرماة على السور واطلق مال كثير اليهم فخرج جماعة من الاعيان واعوان الديوان والمال معهم وشرعوا في اثبات واطلاق اليسير وسرقة الباقي شرها الى المال» «٢» .

كل هذا يدل على ان وسائل بغداد الدفاعية كانت ضعيفة ولا تقوى على مقاومة الهجوم المغولي .

وقد استمر الجيش المغولي باعتداد عدة الحصار وتهيئة وسائل الحرب الى يوم الثلاثاء المصادف الثاني والعشرين من المحرم حيث بدأوا هجومهم على بغداد وكان هولاكو في القلب معسكراً في مقابلة برج العجمي . اما ايلكانويان وقربغا فكان على بوابة كلواذى . اما قولي وبولغا وتوتار وشيرامون وارقيو فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان . وكان بوقا تيمور يقف في جهة القلعة وجانب القبلة بموضع «دولا ب بقل» . وكان بايجوا وسونجاق يرابطان في الجانب العربي حيث المارستان العضدي وكان الجميع

---

(١) :- نفس المصدر السابق ص ٣٢٥ .
(٢) :- الكازروني . مختصر التاريخ . الورقة ٩٥ أ .

يحاربون ويرمون على بغداد «١» . وكان تركيز الهجوم المغولي في الجهة الشرقية من بغداد على برج العجمي «وهو موضع مستضعف» «٢» من سور بغداد كما كان اقصر ابراج السور ويقع على مقربة من باب كلوذاي «٣» .

وقد حاول الخليفة الخروج من هذا المازق فارسل وفداً مكوناً من الوزير ابن العلقمي والجاثليق مارمكيكا ليتفاوض في الصلح طالباً من هولاكو عدم مهاجمة بغداد قائلا . «ان الملك قد امر بان ابعث اليه الوزير وهأنذا قد لبيت طلبه فينبغي ان يكون الملك عند كلمته . فاجابه هولاكو . ان هذا الشرط طلبته وانا على باب همدان اما الان فنحن على باب بغداد وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف اقنع بواحد !ينبغي ان ترسل هولاء الثلاثة يعني الدواتدار وسليمان شاه والوزير» . «٤» وقد خرج هذا الوفد لملاقاة هولاكو مع هدايا فخمة ولكن هولاكو لم يرض عن شروط الصلح كما انه حجر على الوفد من يوم الرابع عشر من المحرم الى يوم السابع عشر منه حيث سمح له بالرجوع الى بغداد «٥» .

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . كذلك نصير الدين الطوسي - ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٢) :- الكازروني - الورقة ٩٥ /أ

(٣) - ابن الطقطقي - الفخري ص ٤٤٤، وكذلك يقع هذا البرج عن يمين باب سور الحلبة . ابن الفوطي ص ٣٢٦

(٤) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ - ٢٨٨ . الطوسي - ص ٢٨٨ .

(٥) :- انظر ابن الفوطي ص ٣٢٦ .

Bar - Hebreaus vol. I . P. 430

وفي اليوم التالي خرج الى هولاكو الوزير وصاحب الديوان وجمع من مشاهير بغداد للتوسط في الصلح ولكن هولاكو اعادهم دون فائدة تذكر «١» .

ودارت رحى حرب طاحنة مدة سته ايام واستخدم المغول الحجاره التي جلبوها من جبل حمرين وجلولاء في ضرب المدينة بالمناجيق كما كانو يقطعون النخيل ويرمون بقطعها بدلا من الحجارة «٢» ثم رمى المدينة بوابل من السهام مربوط فيها منشورات تفيد بأن «الاكاونية والعلويين والداذنشمندية وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمة وامواله» «٣» .

وقد تردت الاحوال في بغداد كثيراً ويئس الناس من النجاة حتى ان الدواتدار اراد ان يهرب بالسفن من بغداد ولكنه بعد ان اجتاز قرية العقاب اطلق جند بوقا تيمور حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النفط على سفنه واستطاعوا ان يستولوا على ثلاثة سفن واهلكوا من فيها وقد اضطر الدواتدار الى العودة كرة اخرى الى بغداد «٤» .

وبعد قتال شديد استطاع المغول ان يحدثوا ثغرة في برج

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ .

(٢) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . الطوسي ص ٢٨٨ .

(٣) :- ابن العبرى - مختصر الدول - ص ٤٧٤ . اما رشيد الدين فيقول ان هده المنشورات كانت تفيد بان.(القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربت لهم الامان منا) .. جامع التواريخ ص ٢٨٧ .

(٤) .- رشيد الدين ص ٢٨٨ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٩ .

العجمي في يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم . وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين منه تسلق جنود المغول السور من برج العجمي واستطاعوا ان يطهروا اعالي اسوار بغداد من الجند . وفي مساء ذلك اليوم تمت سيطرة المغول على كافة الاسوار الشرقية لمدينة بغداد . ولزيادة الاحتياط امر هولاكو باقامة جسر في اعلى بغداد واخر في اسفلها وان يعدوا السفن وينصبوا المنجنيقات ليمنعوا اي انسان من الهرب بالسفن بعد ان انهارت مقاومة بغداد «١» .

ولما يئس الخليفة من الاحتفاظ ببغداد ،لم ير امامه وسيلة سوى الاستسلام فارسل فخر الدين الدامغاني وابن الدرنوس مع تحف وهدايا لهولاكو ليحصلوا له على الامان الا ان هولاكو لم يجبه الى ذلك وعاد الوفد الى بغداد . وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرم ارسل الخليفة ولده الاوسط ابا الفضل عبد الرحمن معه صاحب الديوان وجماعة من العظماء حاملين معهم اموالا عظيمة لاسترضاء هولاكو الا انها لم تقبل منهم. وفي اليوم التالي ــ آخر ــ المحرم خرج ابن الخليفة الاكبر مع الوزير وجماعة من المقربين للشفاعة فلم يجدوا فائدة وعادوا الى المدينة في اليوم التالي اي غرة صفر وكان بصحبتهم الخواجة نصير الدين وايتيمور حاملين رسالة الى الخليفة . كما ارسل هولاكو

(١) :ــ رشيد الدين ص ٢٨٧ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٨ .

فخر الدين الدامغاني وابن الجوزي وابن الدرنوس الى المدينه لاخراج سليمان شاه والدواتدارمنها ومنحهم « فرمانا وبايزة تطميناً لهم وتقوية لموقفهم » . «١» وعلى ما يظهر فان هولاكو كان لايطمئن حتى يلقي القبض على قادة جيش بغداد .

وقد خرج سليمان شاه والدواتدار في نفس اليوم الى هولاكو فاعادهما الى المدينة ليخرجا اتباعهما كافة وطمانهم بانه سيسمح لاتباعهم باللجوء الى مصر والشام «٢» . ولكن المغول كعادتهم في حفظ عهودهم قتلوا الدواتدار وسليمان شاه والامير تاج الدين بن الدواتدار الكبير مع كافة الجند الذين خرجوا معهم . وارسل رؤوس الامراء الثلاثة الى الموصل مع الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ لتعلق في مدينة الموصل «٣» تخويفاً لاهل الموصل بتعليق رؤوس الثلاثة المؤيدين لحرب المغول من اجل ردع كل من تسول له نفسه مقاومة المغول والدخول معهم بحرب . وكان بدر الدين صديقاً لسليمان شاه فبكى عندما رأى رأسه ولكنه علق رؤوسهم خوفاً على حياته «٤» .

وفي يوم الاحد المصادف الرابع من صفر سنة ٦٥٦ـ١٢٥٨ خرج الخليفة من بغداد يصحبه اولاده الثلاثه : ابو الفضل عبد الرحمن وابو العباس احمد وابو المناقب مبارك ومعه ثلاثة

---

(١) :ـ رشيد الدين ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(٢) :ـ نفس المصدر السابق ص ٢٨٩ .
(٣) :ـ نفس المصدر السابق ص ٢٩٠ . انظر كذلك ابن الفوطي ص ٣٢٩ .
(٤) :ـ رشيد الدين ـ ص ٢٩٠ .

الاف من السادات والائمة والقضاة والاكابر واعيان المدينة وقابل هولاكو. وقد طلب منه هولاكو ان يامر اهل بغداد بوضع اسلحتهم والكف عن مقاومة المغول. وكذلك ليخرجوا لاحصائهم. فارسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس اسلحتهم ويخرجوا. فالقى الناس اسلحتهم زمرا زمرا وصاروا يخرجون فكان المغول يقتلونهم «١» . واقيمت للخليفة وابنائه الخيام بالقرب من بوابة كلوذاي في معسكر كيتو بوغا نويان «٢» .

وكان بدء القتل العام والنهب في بغداد في يوم الاربعاء السابع من صفر. فدخل الجند المغول الى المدينة واخذوا بنهب وحرق المدينة وقتل كل من يصادفهم من اهلها وقد استمر النهب والسلب والقتل لمدة سبعة ايام «٣» وقد نجا من تدميرهم بعض منازل العامة وقد نجا النصارى من فتك المغول رعاية لطقز خاتون ـ زوجة هولاكو النصرانية ـ «٤» فقد عين لهم حراساً من المغول حرسوا بيوتهم والتجا اليهم

---

(١) :ـ رشيد الدين ص ٢٩٠ ـ ٢٩١

(٢) ـ نفس المصدر السابق ص ٢٩١ .

(٣) :ـ رشيد الدين . ص ٢٩١ . نصير الدين الطوسي ص ٢٩٠ ابن العبري ص ٤٧٥ . اما ابن الفوطي فيضع مدة الاستباحة على انها كانت ٤٠ يوما . الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ أنظر كذلك ابن كثير البداية ح ١٣ ص ٢٠٢ . الذهبي تاريخ الاسلام . ح ٢ ورقة ١٥٥ ب . المقريزى الملوك ـ ج١ قسم ٢ ص ٤١٠ . اما السبكي فيضع الرقم على انه (نيفاً وثلاثين يوماً) طبقـات الشافعية ج ٥ ص ١١٥ ابن تغري بردى ، النجوم ح ٧ ص ٥٠

(٤) ـ رشيد الدين ـ ص ٢٢٠ .

خلق كثير من المسلمين فسلموا معهم «١» وسلم من القتل جماعة من التجار الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المغول — او كانوا جواسيس لهم على بغداد . كما ان دار الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ابقى عليها وسلم بها خلق كثير . وكذلك دار صاحب الديوان ابن الدامغاني ودار صاحب الباب ابن الدوامي «٢» . وقد اختلف المؤرخون اختلافاً شديداً في ذكر عدد القتلى . فيقول صاحب كتاب الحوادث الجامعة « ان عدد القتلى زاد عن ثمانمائة الف نفس عدا من القي من الاطفال في الوحل ومن هلك في القني والابار وسراديب الموت جوعاً وخوفاً » (٣) وبذكر الذهبي« ثم امر هولاكو بعد ذلك بعد القتلى فبلغوا الف الف وثمانمائة الف وكسر والاصح انهم بلغوا ثمانمائة الف » ٤ »

اما المقريزى فيقول « وامر هولاكو بعد القتلى فبلغت نحو الالفي الف قتيل » « ٥ » اما ابن دقماق فيقول « وقتل اكثر اهل

---

(١) — اما ابن العبري في تاريخية باللغة السريانية فيقول ان الجاثليق جمع كافة النصارى الموجودين في بغداد في كنيسة سوق الثلاثاء وهناك حماهم من القتل ولم يصب اي منهم بأذى . وقد حاول كثير من المسلمين الاغنياء التقدم بهدايا عظيمة الى الجاثليق ليحميهم وكانت حيلة ماهرة منهم على أمل ان ينقذوا ارواحهم وبعد ذلك يستطيعوا ان يسترحموا كل ما دعوه للجاثليق ولكن جميعهم قتلوا ونهبت اموالهم .

Bar - Hebreaus , The Chronogarphy . . . , vol . 1 , P . 431

(٢) — ابن لفوطي — ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٣) — نفس المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٤) — تاريخ الاسلام — ج ٢٠ — ورقة ٢١٢/أ — انظر كذلك ابن كثير — البداية والنهاية — ج ١٣ ص ٢٠٢ ، ابن تغرى بردي — النجوم — ج ٧ — ص ٥٠ .

(٥) — المقريزي — السلوك — ص ٢١٠ .

بغداد حتى قيل ان عدد من قتل يزيد على الفي الف وثلثمائة الف وثلاثين انسان » « ١ » وهذه الارقام لايخفى ما فيها من مبالغة لان سكان بغداد الكلي انذاك لايمكن ان يصل الى هذه الارقام لان سعة بغداد انذاك كانت صغيرة ممتدة بين باب المعظم والباب الشرقي ومن النهر غرباً حتى متحف الاسلحة شرقاً وهذه الرقعة صغيرة نسبياً ولا يمكن ان تضم عددا يربو على المليون « ٢ » .

لهذا نستطيع ان نقول ان ما اورده الرحاله الصيني Ch'Ang Te المعاصر للغزو في رحلته المسماة Si Shi Ki عن عدد القتلى هو الاصح حيث يذكر ان عدد القتلى بلغ بضع عشرات من الالاف . على الاغلب لا يتجاوز الرقم الثمانين الفا فقط « ٣ » .

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر دخل هولاكو مدينة بغداد لمشاهدة قصر الخليفة وجلس هناك مع امرائه وامر باحضار الخليفة فاحضر بين يدية وطلب منه ان يدله على جميع ممتلكاته الظاهرة للعيان والمخفيه فاعطاه الخليفة كل ما يملك من ذهب وفضه واحجار كريمه ومخلفات الخلفاء العباسيين القيمة فوزعها هولاكو على امرائه وقادة جيشه وفرسانه البارزين . ثم خرج هولاكو من بغداد الى معسكره حيث بقي فيه الى اليوم الرابع

---

(١) — ابن دقماق — كتاب الجوهر الثمين — مخطوطه اما صوفيا ، الورقة ٧٠ .

(٢) انظر جعفر خصباك — العراق في عهد المغول الايلخانيين — بغداد ١٩٦٨ . ص ٥٦

(٣) E . Bre hneider, Medieval Research from Eastern Asiatic Sourc London 1910 , vol 1 , P. 138 - 39

عشر من صفر « ١ »
وفي هذا اليوم رحل هولاكو خان عن بغداد بسبب عفونة الهواء ونزل بقريتي «وقف وجلابية» « ٢ » .
وهناك بنفس اليوم ـ الاربعاء المصادف ١٤ صفر ـ قضى على الخليفة وعلى ابنه الاكبر وعلى خمسة من الخدم كانوا في خدمته في قرية «وقف». وفي اليوم التالي قتل الذين كانوا قد نزلوا معه في بوابه كلوذاى . كذلك قضى المغول على كل شخص وجدوه حياً من العاسيين اللهم الافراداً قلائل لم يابهوا بهم .
وقد سلم مبارك شاه الابن الاصغر للخليفة الى اولجاى خاتون فارسلته الى مراغة ليكون مع الخواجه نصير الدين . وهناك زوجوه من امرأة مغولية فانجب منها ولدين . وفي يوم الجمعة السادس عشر من صفر الحقوا الابن الثاني للخليفة بوالده . وبذلك قضى على دولة خلفاء بني العباس « ٣ » .

---

(١) ــ الطوسي ص ٢٩٠ . رشيد الدين ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .
(٢) ــ رشيد الدين ص ٢٩٣ .
(٣) ــ رشيد الدين ص ٢٩٤ . نصير الدين الطوسي ص ٢٩١ .

« مقتل الخليفة المستعصم بالله »

بقدر ما اثارت قصة غزو المغول لبغداد واحتلالها من اقاصيص واساطير فان موت الخليفة المستعصم اثار الكثير من التساؤلات. فقد ذكرت بعض القصص والاساطير الطريفة عن مقتله وعن معاملة هولاكو له قبيل موته مقتولا بيد المغول .

فيقول نصير الدين الطوسي في رسالته عن فتح بغداد ـ وهو شاهد عيان لهذه الحادثة ـ ان هولاكو ذهب لرؤية قصر الخليفة وتجول فيه وكان الخليفة حاضرا معه وكشف لهولاكو عن كافة الكنوز التي كانت مخبأة في قصوره واعطاها له . وقد وزعها هولاكو على القواد والجيش ثم وضع طبقاً من الذهب امام الخليفة وامره باكله فاجابه الخليفة بانه لايستطيع ان ياكله لانه لايؤكل فساله هولاكو « لماذا احتفظت به اذاً ولم تعطه لعسكرك وعملت الاسهم من هذه الابواب ولم تأت الى سواحل جيحون من اجل ان توقف تقدمنا ؟ فاجاب الخليفة بانه قدر الله فقال له الملك كل ما حدث لك فسيكون هو قدر الله» . «١»

وهذا اقدم نص عن قضية صحن الذهب الذي وضع امام الخليفة ليأكله وعلى ما يظن فان القصص التي وردت في بقية المصادر التاريخية قد اخذت من نصير الدين الطوسي مع تحويرات واضافات كثيرة . فيقول ابن الفرات في تاريخه عن هذه الحادثة «ثم امر ـ هولاكو ـ بالخليفة فجوع الى ان

---

(١) ـ الطوسي ـ ص ٢٩٠

بلغ منه الجوع مبلغاً عظيماً فسأل ان يطعم شيئاً فأمر اللعين هولاكو له بطبق فيه ذهب وطبق فيه فضة وطبق فيه جوهر فاحضر ذلك بين يدي الخليفة المستعصم بالله وقيل له : كل هذا فقال هذا لايؤكل . فقال هولاكو : اذا كنت تعلم انه ما يؤكل فلم ادخرته كنت صانعت ببعضه اواستخدمت به جيشاً تلقانا به . . . . الخ «١» .

اما المؤرخ الارمني جريجور الاكانجي فيروي رواية طريفة عن مقتل الخليفة فيقول « وقد اسروا الخليفة - صاحب بغداد مع جميع كنوزه وجيء به امام هولاوو «هولاكو» وعندما راه هولاوو وسأله « هل انت رب بغداد ؟ » فاجاب « نعم انا » عند ذلك امربه فرمى في السجن لمدة ثلاثة ايام بدون خبز او ماء وبعد ثلاثة ايام امر « هولاوو » به فاحضر امامه فلما حضر امامه ساله « كيف انت الان » فاجاب الخليفة غاضبا - وكانه يحاول اخافة هولاوو - « اي نوع من الرجال انت ؟ » ثم قال « هل هذه هي انسانيتك بان تتركني جائعا لمدة ثلاثة ايام ؟ » وقبل ذلك - اي قبل استسلامه لهولاكو - قال الخليفة لسكان بغداد « لاتخافوا فاذا ماقدم التتار فانني سوف احمل رايه محمد واخرج بها واذا ما عملت هذا فان خيالة التتر ستفر ونتخلص منهم » وعندما سمع هولاوو بهذا غضب غضبا شديدا . ثم امر بطبق من الذهب الاحمر فوضع امامه وعندما جاؤا به سأل الخليفة « ماهذا ؟ » فقال هولاوو

(١) - ابن الفرات - تاريخ ابن الفرات ، مخطوطة الفاتيكان (عرب ٧٢٦) الورقة ١٩٦ب انظر كذلك

G. Le strange, The Story of the d eth of the Last Abbasid Caliph, from the Vatican MS. of Ibn al-furat, J.R.A.S 1900 PP. 293 - 300

« هذا ذهب كله حتى يطفيء ظمأك وتشبع وتمتليء » فقال الخليفة « لايشبع الانسان باكل الذهب ولكن بالخبز واللحم والخمر » كذا » « فقال هولاوو للخليفة « فاذا كنت تعرف بان الانسان لايعيش بالذهب الصلد ولكن بالخبز واللحم والخمر ؟ فلماذا لم ترسل كميات كبيرة من الذهب لي حتى لا آتي الى هنا واحطم المدينة وآسرك ؟ وبدلا من ذلك لم تأبه بمصيرك بل داومت على الاكل والشراب » ثم امر هولاوو بان يوضع تحت اقدام جنده وهكذا قتل خليفة العرب » «١» .

من كل ماسبق نلاحظ ان المؤرخين حاولوا التعريض ببخل الخليفة وانه كان مهتما بجمع المال تاركا لامور الدولة مؤكدين على ان هذه الامور هي التي ادت الى نكبته ونكبة الخلافة العباسية معه. وعلى مايظهر فان هذه هي الاشاعات التي حاول بها انصار الوزير ابن العلقمي الدفاع بهاعن وجهة نظر سيدهم بوجوب مصانعة المغول ودفع اذاهم عن بغداد والخلافة باكثر مايمكن من المال حتى لاتودي الاحوال الى ماادت اليه. ولكن هذا يثير امامنا بعض التساؤل..هل ان هدف هولاكو عندما ارسل من العاصمة المغولية لاخضاع ايران والعراق كان فقط هو للحصول على المال والذهب ؟ الجواب كلا لان المغول كانو يستطيعون الحصول عليه عن طريق الغارات التي كانوا

Grigor of Akanc : History of the nation of Arches, ed and (1) Translated by R.P. Black & R. N. Frye , H. J. A. S. XII (1949) PP. 333-35 .

يسنونها على الاجزاء المعمورة والمجاورة لهم وكانت هذه الغارات تكلفهم القليل من الجهد والبذل . ولكن من دراستنا لسياسة هولاكو مع قلاع الاسماعيلة ومع غربي ايران نلاحظ انه كان يرمي الى الفتح المنظم الهادف . الى السيطرة التامة والاخضاع النهائي لهذه المناطق . ومن دراساتنا لتقدم المغول نحو العراق وبغداد بالذات نلاحظ ان هولاكو كان مهتما جدا باخضاعها والسيطرة عليها ليس فقط لاهميتها الاستراتيجية والاقتصادية ولكن لمكانة بغداد وخليفتها من نفوس المسلمين «١» الذين كانوا يكونون نسبة هائلة من رعايا الامبراطورية المغولية لان الخليفة - ولوا سميا - هو الزعيم الاعلى للمسلمين وكان من الممكن ان يثير الكثيرمن المتاعب للمغول عن طريق اثارة رعاياهم المسلمين باثارة حميتهم الدينية ضد الغزاة الكفرة . فكان لابد لهولاكو من القضاء على الخلافة ومركزها وعلى الجيش العباسي العريق الذى كان له اعمق الاثار المعنوية على نفوس المسلمين . هذا بالاضافة الى تأثير زوجته المسيحية وكرهها للاسلام ولرمزه قد يكون له اثر مهم على تصرفه هذا تجاه الاسرة العباسية وتجاة بغداد . ولما بقيت الخلافة شاغرة شعر الناس بفراغ كبير مما حدى بالمؤرخين الى تدوين هذا الشعور . وعندما جاء بيبرس البندقداري الى حكم مصر كان اول ماعمل هو انه

(١) - انظر الفخرى - ابن الطقطقي - ص ١٩٠ . قارن ما كتبه Boyle في :
J. A. Boyle. 'The death of the Last Abbassid Caliph J. S. S. VI/2 (1961) pp. 145 - 61

عين خليفة وادعى انه من بقايا الاسرة العباسية . كل هذا ليسد فراغ الخلافة وليستفيد منه في مقاومة المغول . فقد كان اول واجب عمله الخليفة الجديد هو اصداره تقليدا بالسلطنة لبيبرس وقام هذا الاخير بارساله على راس جيش الى العراق ليحرره من المغول - على امل التفاف المسلمين حوله ضد المغول - وعلى الرغم من فشل بيبرس في هذا المشروع الاان بقاء خليفة ولو صوريا كان له ابلغ الاثر على نفوس المسلمين المعتادين على وجود خليفة لهم - كانت له سلطة فعلية اولم تكن -

ومما يؤيد هذا القول ما يذكره ابن الطقطقي عن منزلة الخليفة في نفوس المسلمين وقد «كان للخليفة منزلة رفيعة في نفوس الناس حتى ان السلطان هولاكو لما فتح بغداد واراد قتل الخليفة المستعصم القوا الى سمعه انه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات فاستشعر لذلك ..الخ»«١»

وهذا جعل هولاكو يتردد كثيرا في قتل الخليفة ولا يقدم على قتله الابعد استشارة عالم كبير من علماء المسلمين المرافقين له وهو نصير الدين الطوسي الذي افتاه بان قتل الخليفة سوف لن يؤدي الى اى خطر او مكروه «٢» لان « علي بن ابي طالب كان خيرا من هذا الخليفة باجماع العالم ثم قتل ولم تجر هذه المحذورات وكذلك الحسين وكذلك اجداد هذا الخليفة قتلوا وجرى عليهم كل مكروه وما

---

(١) - الفخري في الاداب السلطانية - ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) - السبكي - طبقات الشافعية ج ٥ - ص ١١٤ - ١١٥ وابن كثير - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

احتجبت الشمس ولا امتنع القطر فحين سمع ذلك زال ما كان قد حصل في خاطره » «١» واخيرا امر هولاكو بالخليفة فقتل بان وضع في غرارة وشدوا عليه ورفسوه بالارجل الى ان توفي دون ان يراق دمه لان « بعض المسلمين اخافوا الملك - هولاكو - بان قالوا له انه اذا سفك دم الخليفة على الارض فسوف لن تنزل المطر وستصعد اعمدة من النار من مكان الدم المسفوك » «٢» اماابن كثير فيقول عن مقتل الخليفة « فقتلوه رفسا . وهو في جوالق لئلا يقع على الارض شي من دمه خافوا ان يؤخذ بثاره . فيما قيل لهم . » «٣» اما ابن حبيب فيذكر ان هولاكو امر « بان يجعل في عدل ويداس بالارجل الى ان يموت ففعل به ذلك ورحل الى رحمة الله تعالى . وهذه عادة التتار ان لا يسفكوا دماء الملوك والاكابر » «٤» ثم دفن وعفى اثر قبره «٥» .

---

(١) - ابن الطقطقي - الفخري في الاداب السلطانية - ص ١٩٠ - ١٩١ مع العرم بان المؤلف يعطف كثير على المغول في كتابه هذا .

(٢) - Bar-Hebraeus, The Chronography of......Vol. I, P. 431

(٣) - البداية - ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٤) - ابن حبيب ، ٧٣٢ درة الاسلاك في دولة الاتراك ج ٢ ورقة ١/١٥ و ب مخطوطة يني جامع رقم ٨٤٩ .

(٥) - ابن الفوطي - ص ٣٢٦

«انطباع المسلمين عن سقوط بغداد»

كان تفجع المسلمين لسقوط بغداد شديداً فقد كان خطباً جللا . فيقول اليونيني المعاصر لهذه الحادثه «وما دهي الاسلام بداهيه اعظم من هذه الداهية ولا افضع » «١» . ويقول السبكي عن سنة ٦٥٦ـ اي سنة سقوط بغداد ـ « سنة ست وخمسين وستمائه وهي السنة المصيبة باعظم المصائب المحيطة بما فعلت من المصائب المقتحمة اعظم الجرائم الواثبة على اقبح العظائم الفاعلة بالمسلمين كل قبيح وعار النازلة عليهم بالكفار والمسمين بالتتار ولا باس بشرح واقعة التتار على الاختصار حكاية كائنة ببغداد لتعتبر بها البصائر وتشخص عندها الابصار وليجري المسلمون على عمر الزمان دموعهم دماً وليروي المؤرخون بانهم ما سمعوا قبلها واقعة جعلت السماء ارضا والارض سماء » «٢» ويقول الذهبي «فانا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الاسلام واهله بمثلها» «٣» ويظهر تفجع المسلمين المعاصرين للواقعة واضحا فيما قيل من اشعار في رثاء بغداد . ولدينا العديد من القصائد التي قالها شعراء معاصرون تظهر مدى تفجعهم لاحتلال بغداد فالشاعر تقي الدين بن ابي ايسر الشامي «٤» نظم قصيدة رائعة يصف

١ – اليونيني – ذيل ج ١ – ص ٨٥ .
٢ – طبقات الشافعية – ج ٥ – ص ١٠٩
٣ – تاريخ الاسلام ج ٢٠ .
٤ – كان كاتبا للانشاء لدى الملك الناصر داؤد الحاكم الايوبي على قلعة الكرك وقد توفي عام ٦٦٢هـ انظر ترجمته في ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات ج١ – ص ٢١ – ٢٣ وشذرات الذهب ج٥ – ص ٣٢٨٠ – طبعة بيروت .

فيها اخذ بغداد معبراً عن عوطف المسلمين اصدق تعبير وذاكراً فيها كيفية اخذ بغداد والماسي الحاصلة نتيجة ذلك يقول :

لسائل الدمع عن بغداد اخبار
فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يازائرين الى الزوراء لا تغدوا
فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والرابع الذى شرفت
به المعالم قد عفاه اقفار
اضحى لعطف البلى في ربعه اثر
وللدموع على الاثار اثار
يانار قلبي من نار لحرب وغى
شبت عليه ودافى الربع اعصار
علا الصليب على اعلى منابرها
وقام بالامر من يحويه زنار
وكم حريم سبته الترك غاضبة
وكان من دون ذاك الستر استار
وكم بدور على البدرية اتحسنت
ولم يعد لبدور منه ابدار
وكم ذخائر اضحت وهي شايعة
من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدود اقيمت من سيوفهم
على الرقاب وحطت فيه اوزار

ناديت والسبي مهتوك تجرهم
الى السفاح من الاعداء ذعار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا
النار يارب من هذا ولا العار
والله اعلم ان القوم اغفلهم
ما كان من نعم فيهن اكثار
فاهملوا جانب الجبار اذ اغفلوا
فجاءهم من جنود الكفرجبار
يا للرجال باحداث تحدثنا
بما غدا فيه اعذار وانذار
من بعد اسر بني العباس كلهم
فلا انار لوجه الصبح اسفار
ما راق لي قط شيء بعد بينهم
الا احاديث ازويها وآثار
لم يبقى والدنيا وقد ذهبوا
سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا
ان القيامة في بغداد قد وجدت
وحدها حين للاقبال ادبار
آل النبي واهل العلم قد سبيوا
فمن ترى بعدهم تحويه امصار
ما كنت آمل ان ابقى وقد ذهبوا
لكن اتى دون ما اختار اقدار

ويذكر الذهبي ان القصيدة اطول من ذلك وجملتها ٦٦ بيتاً «١» . والقصيدة بصورة عامة تستحق القراءة والدرس لانها نموذج حي لعواطف المسلمين لسقوط الخلافة العباسية وبغداد

اما الشاعر شمس الدين محمد بن عبدالله الكوفي الواعظ فقد نظم العديد من القصائد في رثاء بغداد وصلتنا منها ثلاث قصائد جميعها تشرح عواطف اهل العراق تجاه سقوط الخلافة وبغداد يقول في اولاها :

-بانوا ولي ادمع في الخد تشتبك
ولوعة في مجال الصدر تعترك

-بالرغم لا بالرضى مني فراقهم
ساروا ولم أدر اي الارض قد سلكو

-ياصاحبي ما احتيالي بعد بعدهم
اشر علي فان الرأي مشترك

عز اللقاء وضاقت دونه حيلي
فالقلب في امره حيران مرتبك

يعوقني عن مرادي ما بليت به
كما يعوق جناحي طائر شرك

اروم صبراً وقلبي لا يطاوعني
وكيف ينهض من قد خانه الورك

ان كنت فاقد الف نح عليه معي
فاننا كلنا في ذاك نشترك

- الذهبي - تاريخ الاسلام - ج ٢٠ الورقه ٢١٢ ويروى ابن تغرى بردى خمسة عشر بيتاً فقط منها - النجوم الزاهرة ج ٧ - ص ٥١ - ٥٣ . انظر كذلك :

J De Somogyi, A Qusida on the destruction of Baghdad by the Mongols , B. S. O S. vol vll, 1933 - 35, pp. 41 - 48 .

يانكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عز في احبتنا
ايدى الاعادي فما ابقوا ولا تركوا
لو ان ما نالهم يفدى فديتهم
بمهجتي وبما اصبحت امتلك
ربع الهدايا اضحى بعد بعدهم
معطلا ودم الاسلام منسفك
اين الذين على كل الورى حكموا
اين الذين اقتنوا اين الاولى ملكوا
وقفت من بعدهم في الدار اسالها
عنهم وعما حووا فيها وما ملكوا
اجابني الطلل البالي وربعهم الـ
خالي : نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لاتحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى
وانما هي روح الصبب تنسبك «١»

ويقول الشاعر شمس الدين الواعظ في قصيدة ثانية :-

عندى لاجل فراقكم الأم
فالام اعذل فيكم والام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً
لا تعذلوه فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على
خدي الا انه نمام

---

١ - ابن الفوطي - الحوادث الجامعة - ص ٣٢٥ والشاعر كان شاهد عيان لسقوط بغداد فاقواله كانت معبرة أصدق تعبير عن شعور المعاصرين لهذه الاحداث انظر الحوادث الجامعة ص ٣٢٥ .

ويذيب روحي نوح كل حمامة
فكانما نوح الحمام حمام
ان كنت مثلي للاحبة فاقدا
اوفي فوادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها
يادار ما صنعت بك الايام
اعرضت عنك لانهم مذ اعرضوا
لم يبق في بشاشة تستام
يادار اين الساكنين واين ذيا
ك البهاء وذلك الاعظام
يادار اين زمان ربعك مونقا
وشعارك الاجلال والاكرام
يادار مذ افلت نجومك عنّنا
والله من بعد الضياء ظلام
فلبعد هم قرب الردى ولفقدهم
فقد الهدى وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الاعادي ساكنا
بعد الاحبة لا سقاك غمام
ياسادتي اما الفواد فشيق
قلق واما ادمعي فسجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم
لم يبق في ذاك المقام مقام

لا حظ فيها للعيون وليس
للاقدام في عرصاتها اقدام
وحياتكم اني على عهد الهوى
باق ولم يخفر لدى ذمام
فدمي حلال ان اردت سواكم
والعيش بعدكم علي حرام
ياغائبين وفي الفؤاد لبعدهم
نار لها بين الضلوع ضرام
لاكتبكم تاتي ولا اخباركم
تروى ولا تدنيكم الاحلام
اقصتكم الدنيا علي وكلما
جد النوى لعبت بي الاسقام
ولقيت من صرف الزمان وجوره
ما لم تخيله لي الاوهام
ياليت شعري كيف حال احبتي
وباي ارض خيموا واقاموا
مالي انيس غير بيت قاله
صب رمته من الفراق سهام
والله ما اخترت الفراق وانما
حكمت على بذلك الايام »[1]

---

(١) – ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات – ح ٣٠٣ – ٤ القاهرة ١٢٨٣ / ١٨٦٦

ويقول في قصيدته الثالثة :—

ان لم تقرح ادمعي اجفاني
من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم
ما راقه نظر الى انسان
ياليتني قد مت قبل فراقكم
ولساعة التوديع لا احياني
مالي وللايام شتت شملها
حالي وخلاني بلا خلاني
ما للمنازل اصبحت لا اهلها
اهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم
غير البلاء والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار من بعد رحيلكم
ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم
فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الاولى
كانوا هم الاوطار في الاوطان
اين الذين عهدتهم ولعزهم
ذلا تخر معاقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم
يبكي الهدى وشعائر الايمان

قالت غدوا لما تبدد شملهم
وتبدلوا من عزهم بهوان
كلم الفصاد يراق ارذل موضع
ابدا ويخرج من اعز مكان
افنتهم غير الحوادث مثل ما
افنت قديماً صاحب الايوان
لما رأيت الدار بعد فراقهم
اضحت معطلة من السكان
مازلت ابكيهم والثم وحشة
لجمالهم مستهدم الاكان
حتى رثى لي كل من بما وجده
وجدى ورا شجانه اشجاني
اترى تعود الدار تجمعنا كما
كنا بكل مسرة وتهاني
اذ نحن نغتنم الزمان ونجتني
بيد الامان قطوف كل اماني
والدهر تخدمنا جميع صروفه
والوقت يعدينا على العدوان
والعيش غض والدنو ممزق
بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء وسددت
طرق المزار طوارق الحدثان
مالي اردد ناظري ولا ارى الا
حباب بين جماعة الاخوان

وا لهفتي وا وحدتي وا حيرتي
وا وحشتي وا احر قلبي العاني
سرتم فلا سرت النسيم ولا زها
زهر ولا ماست غصون البان
مالي انيس بعدكم غير البكا
والنوح والحسرات والاحزان
ماليت شعري اين سارت عيسكم
ام اين موطنكم من البلدان «١»

الدكتور عبد المنعم رشاد
عميد كلية الاداب

١ ـ ابن شاكر الكتبي ـ فوات الوفيات ـ ج ١ ، ص ٣٠٤ ـ ٥ .

نتائج حفريات جامعة الموصل في اسوار نينوى توطئـة

الدكتور عامر سليمان
رئيس هيئة تنقيبات جامعة الموصل

كان من بين اهداف جامعة الموصل منذ تاسيسها ان تشارك في احياء التراث العراقي القديم منه والاسلامي وتظهر للعالم بعض ماوصلت اليه حضاراتنا الاصيلة في شتى المجالات العلمية والفنية اسوة بالجامعات العالمية ولتحقيق هذا الهدف فقد قامت الجامعة بدراسة مفصلة لجميع المواقع الاثرية القريبة من مدينة الموصل ووقع اختيارها على مدينة نينوى الاشورية كموقع اول لتنقيباتها العلمية لما لهذه المدينة من اهمية تاريخية بالغة وشهرة عالمية واسعة ففاتحت وزارة الثقافة والارشاد انذاك ومديرية الاثار العامة مبينة استعدادها للمشاركة في مجال التنقيب والصيانة العلمية في مدينة نينوى فلاقى هذا الاستعداد قبولا حسناً وتشجيعا كبيراً في كافة الاوساط العلمية في العراق ومنحت الجامعة ولاول مرة في العراق اجازة للتنقيب والصيانة وبدأت اعمالها في السور الشمالي لمدينة نينوى حيث تتوقع ان تكشف عن احدى بوابات المدينة الاشورية وذلك بتاريخ ١٧-٢-١٩٦٨

وكانت هيئة تنقيبات الجامعة تتالف بالاضافة الى كاتب المقال كرئيس للهيئة . من السادة :

السيد عادل نجم -ماجستير في الاثار من جامعة بغداد

السيد فاروق ناصر -خريج كلية الاداب- فرع الاثار

السيد اسماعيل هادي -خريج معهد المساحة في بغداد .

السيد هاشم اسماعيل -مصور فني

السيد ضرار القدو -خريج اكاديمية الفنون الجميلة

وقد التحق السيد عادل نجم عبو بالهيئة نظرا لاستقالة السيد اسماعيل حجارة بعد شهر من بدء الحفريات كما التحق المساح السيد اسماعيل هادي باعضاء الهيئة نظرا لانسحاب السيد طارق سعيد .

وكان يمثل مديرية الاثار العامة لدى هيئة التنقيب السيد عبدالله امين الملحق في مفتشية اثار الموصل ثم السيد منهل جبر -ملحق في مفتشية اثار الموصل .

ولقد كان لتشجيع رئاسة الجامعة واهتمامها باعمال الحفريات التي تقوم بها هيئتنا الأثر الفعال في انجاز الجزء الاكبر من العمل في وقت يكاد يكون قياسيا وعلى اسس علمية سليمة ولااجد نفسي وانا اتحدث عن اعمال الجامعة في هذا المجال الا شاكرا للمساعدات العلمية والادارية التي قدمتها لنا كلية الاداب « هيئة الانسانيات انذاك » في جامعة الموصل خاصة الدكتور عبد المنعم رشاد عميد الكلية بالوكالة وللمساعدات العلمية التي قدمها لنا اساتذة كلية الطب وكلية الهندسة في معالجة الهياكل العظمية والابنية المكتشفة كل في مجال اختصاصه. كما لايفوتني ان اتقدم بشكري الجزيل الى كافة اعضاء هيئة التنقيبات وممثلي مديرية الاثار العامة ومنتسبي متحف الحضارة والعلوم في جامعة الموصل للجهود المخلصة

التي بذلوها في سبيل المحافظة على دقة العمل وانتظام سيره على اسس علمية متينة واني لارجو مخلصاً ان تتظافر الجهود في المستقبل القريب للكشف عن ابنية نينوى وصيانتها لاظهارها بمظهرها الاصيل .



تقع مدينة نينوى «١» قبالة مدينة الموصل «٢» وعلى بعد كيلو متر واحد من الضفة الشرقية لنهر دجلة وتعتبر من اهم العواصم الاشورية الاربعة «٣» لما خلفته من اثار واضحة في حضارات الشرق الادنى القديم عامة وحضارات العراق خاصة .

يعود تاريخ نينوى الى اكثر من ستة الاف سنة كما تدل

---

(١) ورد اسم مدينة نينوى في بعض المصادر العربية القديمة والمصادر العربية ولايعرف بالضبط اصل اشتقاق الاسم ومعناه ويلاحظ في بعض النصوص المسمارية ان اسما مشابها له قد اطلق على احدى مقاطعات مدينة لجش السومرية ويذكر ان اياتم ؛ حاكم مدينة لجش ؛ بدء بنى معبد للالهة نانشة في منطقة ب (انظر

Corus des Insrpeions ' Royales ' presargom ques de Lagas' .

ويذهب بعض العلماء الى الاعتقاد بان اسم نينوى مشتق من اسم الهة سومرية معينة ومما تجدر ملاحظته ان اسم نينوى قد ورد في الكتابات المسمارية مرمزا من علامتين مركبتين الاولى ولعلها تعني موطن و مسكن و ثانية تعني سمكة او حوت كما ان لفظ نينوى يمكن ان يكون من نينو naruu بمعنى السمكة او الحوت وحوت الاسماك او البحر ؛ ولعل هذا الاشتقاق يفسر لنا تسمية احد تلول نينوى بتل النبي يونس وهو المعروف بصاحب الحوت

(٢) لايعرف بالضبط اصل اسم مدينة الموصل حيث لم يرد هذا الاسم في النصوص الاشورية رغم اننا نعتقد بانه كان هناك قرية صغيرة في موقع مدينة الموصل الحالي منذ العهد الاشوري المتاخر على اقل تقدير . وقد اطلق الاراميون على هذه القرية او المدينة اسم حصن عبورا يا اى ؛ الحصن الذي على الضفة الاخرى ، مما يدل على ان الاسم اطلق من قبل سكان الضفة اليسرى من النهر اى سكان مدينة نينوى كما ذكر المدينة زينفون في القرن الرابع قبل الميلاد باسم ميبلا Muspile وفي العهد الفارسي اطلق عليها اسم نوار دشير . اما سبب تسميتها بالموصل فيرى المؤرخون المسلمون بانها سميت بهذا الاسم لانها وصلت بين الجزيرة والشام او انها وصلت بين الفرات ودجلة . ومنهم من يرى ان كلمة الموصل مشتقة في الاصل من الفعل الاكدى شبالو sapalum ويعني (خفض سفل) والصيغة ؛ مشبالو muspalum تعني الارض المنخفضة . غير اننا لانعتقد من الناحية اللغوية بانه يمكن ارجاع كلمة الموصل الى الجذر الاكدى شبالو رغم ان المعنى يمكن ان يطابق موقع الموصل بالنسبة الى الاراضي المرتفعة المحيطة بها وذلك لان حرف الشين في اللغة الاكدية لايمكن باية حال من الاحوال ان يقابل حرف الصاد في اللغة العربية هذا فيما اذا سلمنا بامكانية سقوط الفاء (P) .

٣) اما العواصم الثلاثة الاخرى فهي مدينة اشور ومدينة كلخو (النمرود) ومدينة دورشركين (خرصباد)

على ذلك طبقات نينوى السفلى التي عثر فيها على اثار مستوطنات الانسان العراقي القديم من فخار والآت وادوات خاصة بالزراعة ودمى طينية .

وتشير الطبقات المكتشفة الى استمرار السكن في هذه المدينة طوال العصر الحجري المعدني وعصور فجر السلالات «١» وفي حدود الالف الثالث ق . م . استقرت الاقوام الاشورية السامية الاصل «٢» في مدينة نينوى ونماكيان هذه المدينة وترعرع عبر انها بقيت كغيرها من المدن الواقعة في شمال بلاد مابين النهرين خاضعة في اغلب الاحيان الى نفوذ الدويلات السومرية والاكدية والبابلية السياسي والحضاري

وفي اواخر الالف الثاني قبل الميلاد «في حدود ١٠٨٠ ق . م .» اتخذت مدينة نينوى ولاول مرة عاصمة للاشوريين من قبل الملك

---

(١) حول المستوطنات الاولى في نينوى انظر

R.Compbell Thompson, Liverpool Annals of Archaeology, XX,(1933) the same author, ' The Buildings on Quyunjiq the Large Mound of Nineveh ', Iraq, I/1, 90 .

(٢) الاشوريون في الاصل فرع من الاقوام السامية القادمة من شبه الجزيرة العربية الى بلاد وادي الرافدين عن طريق سوريا ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد الطريق الذي سلكه الاشوريون عند قدومهم الى بلاد وادي الرافدين فمنهم من يعتقد بان الاشوريين سكنوا اول الامر جنوب العراق ثم نزحوا نحو الشمال وقد اعتمد اصحاب هذا الرأي على التشابه الكبير بين حضارة الاشوريين وحضارة الجنوب ومنهم من يرى ان الاشوريين جاؤوا نحو بلاد وادي الرافدين عن طريق الفرات الاوسط مباشرة ويفسر هذا الفريق من العلماء التشابه الموجود بين حضارة الاشوريين وحضارة بلاد سومر واكد بانه ناتج عن انحدار كلا الحضارتين من اصل سامي واحد وعن مجاورة الحضارتين لبعضهما لفترة طويلة من الزمن . ومما تجدر الاشارة اليه ان الاشوريين الموجودين حاليا في العراق لا علاقة لهم بالاشوريين في التاريخ وان لغة الاشوريين الحالية ما هي الا لهجة من اللهجات السريانية الحديثة .

تجلا تبليزر الاول عبر انها بلغت ما بلغته من الشهرة وسمو الشأن في عهد الملك سنحاريب « ٧٠٥ - ٦٨١ ق . م . » الذي اتخذها عاصمة للامبراطورية الاشورية بعد ان كان والده سرجون « ٧٢١ - ٧٠٥ ق . م . » قد ابتنى له عاصمة جديدة هي دور شروكين «١» « خرصباد الحالية » وبقت نينوى قبلة الشرق الادنى القديم وعاصمة لاعظم امبراطورية اشورية حتى زوال سلطان الاشوريين السياسي في اواخر القرن السابع قبل الميلاد « ٦١٢ ق . م . » حيث قضي عليهم من قبل القبائل الكلدانية والميدية واحرقت على اثرها مدينة نينوى .

تتألف اطلال نينوى اليوم من تلين كبيرين احدهما يدعى تل قوينجق « ٢ » وهو الاكبر والثاني تل النبي يونس « ٣ » ويحيط بهذين التلين سلسلة من التلال يتجاوز طولها الاثني عشر كيلو متراً تبطن داخلها سور نينوى الداخلي ولقد بدأت اعمال الحفر والتنقيب في مدينة نينوى في تل قوينجق وبعض اجزاء السور منذ

---

(١) والاسم دور شروكين يعني مدينة سرجون ... بدأ سرجون ... مدينته الجديدة سنة ... ق . م . واستغرق العمل فيها عدة سنوات ومن المعتقد انه مات قبل ان ينتهي ... فهجرت المدينة من قبل ابنه سنحاريب . وتعرف اطلال دور شروكين اليوم ... خرصباد وهو اسم فارسي محرف عن خسرو اباد . تقع خرصباد على بعد ... شرقي ... الموصل .

(٢) قوينجق كلمة تركية الاصل لعلها مركبة من (كنوي) و (قوي) تعني ... و (إنجلك) او (إنجيك) وهم جماعة من التركمان ... حلوا في منطقة ... من اطلال نينوى ويرى البعض ان قوينجق تعني بالتركية (...)

(٣) ذكر التل في المصادر العربية باسم تل توبه (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي و ... لابن الاثير ورحلة ابن جبير ص ٢١١ بينما ذكره ابن بطوطة باسم تل يونس (رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٤٨) .

سنة ١٨٤٢ على يد بعض المنقبين البريطانيين امثال لبرد ورسام وكنك وتومبسون ولم تمتد يد الحفر الى تل النبي يونس نظراً لوجود جامع النبي يونس فوقه تحيط به دور السكن والمقابر العامة. وكان من نتيجة التنقيبات ان كشف عن مخططات بعض القصور الاشورية والمعابد والمباني الملكية «١» كما كان من نتائج تلك التنقيبات ان عثر على اعداد كبيرة من التماثيل والثيران المجنحة والالواح المنحوتة نحتاً بارزاً اضافة الى الرقم الطينية التي تعتبر من اكبر المجاميع المسمارية المكتشفة حتى الان وجلها يعود الى عهد الملك الاشوري اشوربانيبال. ومن دراسة بعض هذه النصوص تمكن علماء الاثار من رسم صورة واضحة للحياة الاشورية في القرن الثامن والسابع قبل الميلاد كما افادتنا النصوص المكتشفة في دراسة تاريخ بلاد بابل ايضا نظراً لان بعضها ماهو الا نسخ مطابقة للنصوص البابلية ومما يؤسف له ان جميع الاثار المكتشفة في مدينة نينوى قد نقلت في وقتها الى المتحف البريطاني في لندن. اما تل قوينجق فقد اهمل منذ ذلك الحين وانهارت الاتربة على مناطق الحفر

---

(١) انظر See . Layard, A. H. , Nienveh and its Remains (London, 1890) ; the same author. Nineveh and Babylon London , 1852) ; Hamilton, R.W , 'Excavations on the Temple of Ishtar at Nineveh ' , AAA,XIX (1932) : Thompson 'R. C. The Excavations on the Temple of Nabu at Nineveh ' , Archaeologia lxxix (London, 1929) ; See : Luckenbill , D.D. , the Annals of Sennachrib, (Chicago, 1924). the same author, Ancient Records, Assyria, (Chicago, 1926); Pritch--ard, J.B. , Ancient Nerr Eastern Texts Relaring to the Old Testament, (Princeton,, 1955) .

السابقة لاسيما وان طريقة التنقيب كانت بواسطة الانفاق فعاد مظهر التل الخارجي الى ماكان عليه من قبل . ونظرا لاهمية مدينة نينوى التاريخية والاثرية فقد عزمت مديرية الاثار العامة العراقية في السنوات الاخيرة على انقاذ ماتبقى من ابنية واثار في هذه المدينة وباشرت اعمالها في اعادة استكشاف قصر سنحاريب في تل قوينجق والكشف عن بعض بوابات المدينة وهي لاتزال تعمل للكشف عن بقية البوابات «١» .

تشير جميع النصوص المسمارية المكتشفة في كل من تل قوينجق وبوابة شمش وبوابة ادد «٢» الى ان الملك سنحاريب كان قد قام باعادة بناء نينوى واسوارها مجددا «٣» وان

---

(١) قامت مديرية الاثار العامة باستظهار بعض البوابات في سور نينوى فكشفت عن بعض جزء بوابة سنحاريب في الضلع الشرقي من السور وبوابة شمش في الضلع الغربي ايضا وقد استمر العمل في بوابة شمش وشمل اعادة بناء البوابة الى ما كانت عليه من قبل ولا يزال العمل مستمرا فيها ، اما في الضلع الشمالي فقد قامت المديرية بصيانة بوابة نركال واستظهار الاجزاء الامامية منها كما كشفت عن الممر المؤدي الى اعلى السور والخاص ببوابة سن وفي هذه السنة بوشر بالكشف عن بوابة مشقي في الضلع الغربي من السور وتعتبر هذه البوابة من اهم البوابات المكتشفة حتى الان لما تمتاز به من صفات معمارية خاصة بجدرانها للنهر اما ما فيما يخص تل قوينجق فقد بدأ العمل به قبل ثلاث سنوات في موقع قصر سنحاريب وكشف فيه عن قاعة العرش وبعض ملحقاتها تزينها الالواح الحجرية المنحوتة والثيران المجنحة ومما يؤسف له ان ايدي المنقبين الاجانب كانت قد كشفت عن هذا القصر ونقلت كثيراً من المنحوتات النادرة والتي تزين الان قاعات المتحف البريطاني وتقوم مديرية الاثار العامة الان بصيانة هذا القصر والمحافظة على الاجزاء الباقية منه". (انظر مقال الدكتور طارق مظلوم " نينوى في ضوء التنقيبات الاثرية » سومر المجلد ٢٣ (١٩٦٧) ص ١٣٥ – ١٤٠

(٢) انظر ترجمة النص المكتشف في بوابة ادد من هذا المقال.

(٣) انظر وصف اعادة بناء نينوى وقصورها في

Luckenbill, D. D. , The Annals of sennachrib, (chicago, 1924)

معظم الابنية المكتشفة حتى الان تعود الى عهد هذا الملك ويمكن وصف مدينة نينوى في عهد الملك سنحاريب بانها كانت محاطة بسور صخري يكاد يكون شكلة مستطيلا يبلغ طول اضلاعة اثني عشر كيلومترا تقريباً وبتفاوت عرض السور بين ١٠– ٤٥ مترا تتخلله خمس عشر بوابة موزعة على الوجه التالي :

الضلع الجنوبي بوابة اشور «١»
الضلع الشرقي بوابة سنحاريب «٢» وبوابة شمش «٣» وبوابة ننليل «٤» وبوابة مشلال «٥» وبوابة شبانيبا «٦» وبوابة خلاخي «٧»

---

(١) سميت بوابة [illegible] نسبة الى مدينة اشور العاصمة الاشورية الاولى والواقعة في الناحية الجنوبية نسبة الى الآله اشور [illegible] الاشوريين القومي [illegible] صفة البوابات التي سميت باسماء الالهة الرئيسية عند الاشوريين اما اسم اشور فلم يعلم معناه بوجه التاكيد ولعل الكلمة تعني الرحمن كما يستدل على ذلك من الصيغة [illegible] مشتقة من اصل سومري .
(٢) بوابة سنحاريب [illegible] في اكثر الكتب الحديثة .
(٢) شمش اله الشمس
(٤) الالهة ننليل زوجة الاله انليل اله الجو . نسبة الى مدينة كارننليل .
(٥) ومعناه معبد من نوع خاص انظر Von Soden' Akkadisches Handworterbuch VII, P. 684
(٦) نسبة الى مدينة شبانيبا .
(٧) نسبة بلاد الى خلاخي .

الضلع الشمالي بوابة ادد «١» وبوابة نركال «٢» وبوابة سن «٣»

الضلع الغربي : بوابة مشقي «٤» وبوابة باب كاري «٥» وبوابة مد باري «٦» وبوابة اكاللي ماخيرتي «٧» وبوابة خندوري وقد بنيت البوابات على شكل قلاع محصنة ترتفع احيانا الى ما يقارب من العشرين مترا وتحتوي كل بوابة عددا من القاعات الواسعة اعدت للجند بالاضافة الى هذه التحصينات

---

(١) نسبة الى الاله ادد اله البرق والرعد والمطر

(٢) نسبة الى الاله نركال اله العالم السفلي ويقابل مدينة تربيصو ومن الجدير بالذكر ان هيئة تنقيبات جامعة الموصل قد قامت في خريف سنة ١٩٦٨ بالتنقيب في منطقة الشريخان قرب قرية الرشيدية وكشفت عن مدينة تربيصو الاشورية وعن معبدها الرئيسي وهو معبد الاله نركال الذي كان الملك سنحاريب قد شيده كما تشير الى ذلك حوليات هذا الملك المكتشفة في المعبد المذكور ومن المحتمل جدا ان باب نركال سمي بهذا الاسم نسبة الى هذا المعبد وان بوابة نركال كانت متصلة بمعبد الاله نركال في مدينة تربيصو بواسطة شارع طويل مبلط بالحجر حيث عثرت هيئة تنقيبات جامعة الموصل على آثار هذا الطريق داخل المجموعة الثقافية وتمكنت من تتبع الاسس الخاصة بالطريق الملكي الذي يتجه نحو بوابة نركال من جهة ومن جهة اخرى نحو المجموعة الثقافية اي باتجاه مدينة تربيصو الاشورية . وبوابة نركال هي اول بوابة من بوابات مدينة نينوى والمكتشفة حديثا وقد اعيد بنائها سنة ١٩٤١ ويزين البوابة ثوران مجنحان على جانبي المدخل الرئيسي خلافا لبقية البوابات المكتشفة حتى الان والخالية من الثيران المجنحة مما يشير الى ان هذه البوابة كانت معدة لموكب الملك والامراء عند خروجهم الى مدينة تربيصو وغيرها من المناطق القريبة .

(٣) الاله سن اله القمر .

(٤) اي بوابة السقايا ويلفظ الاسم مشقي وليس ماشكي وكما يتضح من الاسم ان اصل الكلمة العربية والاكدية واحد وهو المصدر سقي في العربية وشقي في الاكدية وظاهرة مقابلة حرف السين في العربية لحرف الشين في اللغة الاكدية واضحة كما في حرف السين من كلمة شمس

(٥) اي بوابة المسناة

(٦) اي بوابة الصحراء

(٧) اي بوابة السلاح

ثم . فقد أضيف الى الناحية الشرقية من المدينة سور ترابي خارجي استخدم كخط دفاع اول ضد هجمات الاقوام القادمة من الشرق ولاتزال اثار هذا السور تكون حائلا ترابياً ضخما بموازاة الضلع الشرقي من سور نينوى الداخلي وبين هذا السور والسور الداخلي خندق كبير جلبت اليه المياه من نهر الخوصر .
اما القصور الملكية والمعابد والمباني العامة فكان مركزها في المنطقة المتمثلة اليوم بتل قوينجق وتل النبي يونس بينما انتشرت دور السكن العامة وثكنات الجنود في الارض المنبسطة الواقعة بين السور الداخلي وبين القصور الملكية والمعابد .
ويذكر الملك سنحاريب في احد نصوصه التاريخية انه اولى اهتماما كبيرا لمشاريع الري فجلب المياه الى مدينة نينوى والقرى المجاورة لها من موقع قريب من منبع نهر الكومل من مجاز جبلي في بافيان وبنى لذلك قناة مبلطة بالحجر طولها خمسون ميلا لتجري فيها المياه الى نينوى ولاتزال اثار هذه المشاريع واضحة للعيان في كل من بافيان قرب جروانه ومعلثايا قرب دهوك «١» كما يذكر سنحاريب بانه جلب الانواع العديدة من الاشجار المثمرة واشجار الزينة من جميع المناطق الواقعة

---

(١) عن مشاريع الري التي قام بها سنحاريب انظر

David Oates , Studies in the Ancient History of Northern Iraq (oxford, 1969) , P. 49 ff . ; Th. Jacobson and Seton Lloyd , Sennahrib's Aqueduct of Jarwana, OIP, XXIV (Chicago1935) Laessoe, J., Reflexions on modern and ancient Oriental water works, JCS, VIII (1953) , p.5-26 ; Safar . F. , Sennachrib's project for supplying Erbil with water, Sumer, III (1947) , pp 23-25.

تحت عموده وزرعها في حدائق ورياض نينوى فاضفى الى المدينة جمالا طبيعيا رائعا اضافه الى ذلك فانه قام بجمع انواع الحيوانات الاليفة منها والبرية في منطقة واسعة تتوسطها بحيرة من الماء للطيور والاسماك .

وقد قام كل من اسرحدون واشوربانيبال اللذان اعقبا سنحاريب في الحكم ببناء بعض القصور في نينوى وترميم المباني الاخرى الا ان اعمالهم العمرانية لاتقارن باعمال سنحاريب وقد انتهت مدينة نينوى نهاية محزنة حيث احترقت فيها النيران في حدود سنة ٦١٢ ق . م. من قبل القبائل الميدية والقبائل البابلية الحديثة «الكلدانية» واحرقت جميع قصورها ومعابدها وهجرت المدينة لفترة طويلة الى ان استقرت في بعض مناطقها بعض الاقوام الفرثية والجاليات اليونانية فيما بعد ومن يزور اطلال مدينة نينوى اليوم ويدقق النظر في بواباتها المكتشفة ومنها بوابة ادد يلاحظ اثار الحريق الذي اصاب المدينة وانهى بذلك عصراً من العصور الذهبية التي مرت على ارض مابين النهرين .

ان التل الذي اختير لحفريات جامعة الموصل هو جزء من سلسلة التلال التي تضم تحتها سور نينوى الشمالي ويقع هذا التل على بعد ٨٠٠ مترا تقريبا من باب نركال المكتشف سابقاً ترتفع اعلى نقطة في التل عن مستوى السهل المجاور مايقرب من ١٨ مترا ويقابل السفح الشمالي للتل وعلى بعد خمسين مترا مترا منه واد اثري كان يستعمل في العهد الاشوري، كخط دفاع اول ضد هجمات الاعداء ومن المحتمل ان يعثر في هذا الوادي على اثار جسر المدخل الرئيسي للبوابة موضوعة البحث ويصل بينها وبين التلال الواقعة ما وراء الوادي «انظر الخارطة الكونتووية رقم «١» ».

بدأت هيئة تنقيبات جامعة الموصل اعمالها في هذا التل بتاريخ ١٧ - ٢ - ١٩٦٨ بعدد قليل من العمال المحليين لايتجاوز العشرة يشرف عليهم اربعة من العمال الشرقاطيين المهرة ثم زيد العدد الى ان تجاوز المائة عامل بعد ثلاثة اشهر من بدء العمل . ولقد باشرت الهيئة اعمالها بتوسيع المجسات التي سبق لمديرية الاثار العامة ان قامت بحفرها واستظهرت بعض معالم اللبن فيها ثم انتقل العمل بعد ذلك الى السفح الجنوبي من التل واتضح لنا في الاسبوع الاول من بدء الحفريات بان التل يضم تحته احدى بوابات نينوى المسماة ببوابة ادد نسبة الى الاله ادد اله البرق والرعد وتذكر النصوص المسمارية المكتشفة بان الملك الاشوري سنحاريب «٧٠٥ - ٦٨١ ق . م .» كان قد اعاد

بانها كشفت بوابات سوى الخمسة عشر كما اتضح بان البوابة كانت تتالف بصورة عامة من مدخل رئيسي يعلوه قوس نصف دائري ضخم يبلغ ارتفاعه سبعة امتار ونصف المتر ينفذ الى قاعة واسعة مستطيلة الشكل تقريباً يبلغ طولها ثلاثة وعشرون متراً وعرضها سبعة امتار وترتفع جدرانهاالمشيدة باللبن الطرى الى مايقرب من تسعة امتار ويعتقد ان القاعة كانت مسقفة بقبو طولي نصف دائري مشيد بالاجر المفخور « الطابوق » الذي عثر على كميات كبيرة منه داخل القاعة . وينفذ من القاعة الى داخل المدينة من خلال مدخل مشابه ومطابق في شكله وقياساته للمدخل الرئيسي يقع قبالته تماما اي في الضلع الجنوبي من القاعة .

يحيط بالبوابه من الخارج غلاف حجري يرتفع الى ما يقرب من ستة امتار عن مستوى الارض الخارجية تتخلله ابراج حجرية ترتفع عن مستوي الغلاف الحجري بمايقرب من مترين ويفصل بين وجه الغلاف الحجري والسور المشيد باللبن طريق عرضه ثلاثة امتار هو سطح الغلاف الحجري اعد لوقوف الجند المدافعين عن المدينة . اما ابراج اللبن المحيطة بالمدخل الرئيسي فترتفع عن مستوى الارضية الخارجية بسبعة عشر مترا وعشر سنتمترات اي انها ترتفع الى مستوى سطح القاعة ويقابل هذه الابراج ابراج مشابهة من حيث الارتفاع ومناظرة لها في الجهة الجنوبية من القاعة .

ويرقى الى سطح ابراج اللبن والقاعة والسور بواسطة ممر يدور حول كتلة مستطيلة من اللبن ويتدرج في الانحدار

ينع هذا الممر في الجهة الشرقية من القاعة وينفذ اليه من الضلع الشرقي للقاعة من خلال ممر على شكل قبو نصف دائري . وفي الضلع الشمالي من هذا الممر فتحات عمودية ضيقة تنفذ الى اعلى جدار السور كانت بمثابة منافذ لدخول الهواء النقي الى الممر .

وقد ظهرت في الاسبوع الاول من بدء الحفريات اثار الحريق الذي اصاب مدينة نينوى عند سقوطها على يد الجيوش الكلدانية والميدية .

وزيادة في الايضاح فقد ارتأينا أن نبدأ وصفنا للبوابة المكتشفة بالاجزاء الخارجية منها ثم الداخلية دون مراعاة تسلسل اكتشاف الاجزاء المختلفة .

الغلاف الحجري :

من اهم مايميز التحصينات الاشورية المتأخرة الاسوار الحجرية الضخمة التي تحيط بالمدن المهمة ومداخلها الرئسية ومدينة نينوى كغيرها من المدن الاشورية محاطة بسور حجري تتخلله ابراج ترتفع عن مستوى السور وتبرزعنه قليلا الى الخارج واكثر مايميز الغلاف الحجري المكتشف علىجانبي بوابة ادد هو انحدار الجزء الغربي منه بنسبة ٨ سنتمترات في المتر الواحد نحو الغرب يزداد هذا الانحدار كلما اتجهنا غربا اما الجزء الشرقي فان الانحدار يبدأ من نهاية البرج الثاني بنسبة اربع سنتمترات فقط في المتر الواحد ولعل هذا الانحدار يزداد كلما اتجهنا نحو الشرق والسبب في انحدار الغلاف نحو الشرق والغرب هو ان البوابة

كانت قد شيدت على مرتفع من الارض زيادة في التحصين وقد حاول بناة السور ان يأخذوا نفس الانحدار الطبيعي ويشيدوا السور على غراره غير ان ارتفاع الغلاف الحجري عن الارضية الخارجية يزداد كلما ابتعدنا عن البوابة لاسيما ناحية الغرب لان نسبة الانحدار في البناء لاتوازي نسبة الانحدار الطبيعي للارض بل تقل عنها كثيرا ولهذا فان ارتفاع الغلاف الحجري يتراوح بين ٣٥ و٥ ملمترا في الناحية الشرقية وبين ستة امتار عند البرج الثالث من الناحية الغربية .

يبلغ سمك الغلاف الحجري ثلاثة امتار ونصف تقريبا وهو مشيد بقطع ضخمة من الصخر الابيض « الحلان » المتوفر في المناطق القريبة من نينوى وقد نحتت جوانب القطع الحجرية الواقعة في الواجهة بنفس الاسلوب المتبع في الوقت الحاضر والمسمى محليا بالنازي . تتراوح احجام قطع الحجر المستعملة في وجه الغلاف الحجري بين ٥٠و١ × ٩٠ و ٣٨×٢٥ سنتمترا اما سمك هذه القطع فيتراوح بين ٣٠ الى ٩٠ سنتمترا وقد شيد الغلاف الحجري بشكل منتظم فبنيت عدة صفوف من الحجر ذي الحجم الكبير ثم اعقبتها صفوف من الحجر ذو الحجم الاصغر فالاصغر كلما ارتفعنا الى اعلى وتنتهي بصف من الحجر المنحوت من الوجهتين تعلوه قطع الحجر المسننة «انظر الصوره رقم »

وعلى ارتفاع اربعة امتار من الغلاف الحجري يقتصر الغلاف على الوجه فقط تاركا مايقرب من ثلاثة امتار كطريق

لمرور الجند ووقوف المدافعين «١» . يتخلل الغلاف الحجري ابراج مشيدة بنفس الحجارة عرض الواحد ثلاثة امتار ونصف المتر تبرز الى الأمام ١٫٢٠ مترا وترتفع عن مستوى الغلاف الحجري بما يقرب من المترين وهي مفتوحه الى الداخل وترتفع ارضيتها الى مستوى ارتفاع الغلاف الحجري ويرقي الى داخل الابراج من الطريق المعد لوقوف الجند ثم بواسطة درج صغير من الحجر ويعلو الابراج احجار مسننة مشابهة للاحجار التي تعلو الغلاف الحجري .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الهيئة قد عثرت على اربعين قطعة من الاحجار المسننة اصغر حجما واقل ارتفاعا من الاحجار المسننة المكتشفة في بوابة شمش وقد عثر على هذه القطع على جانبي المدخل الرئيسي للبوابة ويدفعنا الى القول بان هذه الاحجار لابد وانها تعود الى الابراج الحجرية الاربعة المحيطة بالمدخل الرئيسي للبوابه حيث لايمكن ان نستعمل مثل هذه الاحجار

---

(١) وهناك تجدر الاشارة الى الاختلاف [illegible] ورأي مديرية الاثار العامة في مدى استمرار الغلاف الحجري في بوابة شمش التي قامت مديرية الآثار العامة بصيانتها ينتهي الغلاف الحجري عند بداية المنحدر امام البوابة اي ان الطريق المعد لمرور ووقوف الجند فوق الغلاف الحجري يكون مقطوعا بالمنحدر حيث يمكن للجند من الوصول الى هذا الطريق عن طريق المنحدر الامامي [illegible] ان الغلاف الحجري لاينتهي عند بداية المنحدر بل ينعطف باتجاه المدخل الرئيسي [illegible] الغلاف الحجري [illegible] ثلاثة امتار ونصف وبذلك لايمكن للجند ان يصلوا الى سطح الغلاف الحجري من المنحدر الامامي بل عليهم ان يأتوا من داخل المدينة عن طريق [illegible] في ذلك واضح وبديهي حيث كيف يمكن من الناحية العسكرية [illegible] الوصول الى سطح الغلاف الحجري حيث يقف عليه المدافعون . بالاضافة الى ذلك فان هناك ادلة اثرية قاطعة على انعطاف الغلاف الحجري عند المدخل الرئيسي في كلا البوابتين شمش وادد فقد عثرنا في بوابة ادد على صف من الحجارة يكون الصف الاول من المنعطف كما يمكن مشاهدة بعض قطع الحجر في بوابة شمش في نفس المكان (انظر الصور الفوتوغرافية رقم ورقم) .

الصغيرة الاعلى الابراج التي تكون اكثر ارتفاعا عن مستوى الارض الخارجية وذلك لاسباب دفاعية واضحة فكلما زاد الارتفاع قلت حاجة المدافع الى جدار مرتفع امامة يحميه من سهام الاعداء بل ان مثل هذا الجدار قد يعوقه عن السيطرة في تصويب سهامه الى العدو .

تبلغ المسافة بين برج واخر اربعة عشر متراو نصف تقريبا اى خلافا لما في بوابة شمش في الضلع الشرقي من سور نينوى حيث تتراوح المسافة بين برج واخر من تسعة امتار الى احد عشر مترا ولعل هذا يعود الى اهمية بوابة شمس وضرورة زيادة تحصيناتها . ويظهر ان بعض اجزاء الغلاف الحجري كانت مزينة بصور ملونة مرسومة على الحجر اد عثرنا على بعض قطع الاحجار الملونة بالوان مختلفة منها الازرق والبني والاصفر وباشكال هندسية . مختلفة مما يدل على انها تكون جزأ من لوحة فنية كبيرة الحجم لعلها كانت تزين الغلاف الحجري على جانبي المدخل الرئيسي للبوابة ومما يؤسف له اننا من لم نتمكن من العثور على جميع اجزاء تلك اللوحة لمعرفة تفاصيلها .

ولتصريف مياه الامطار المتجمعة على سطح السور الصخري فقد وضعت احجار ضخمة مشقوقة من الوسط في منتصف الغلاف الحجري بين كل برجين من الابراج الحجر يةوقد عثر على قطعتين من هذه الاحجار .

يبني الغلاف الحجري مباشرة سور من لبن يبلغ سمك اضيق منطقة فيه ما يقرب من ١٥و٥٠ مترا ولا يعرف بالضبط ارتفاعه عن مستوى الارض الخارجية وسيتحدد ذلك اذا ما عثر على ممر او منحدر مؤدي الى السور كالممر المتكشف في الجهه الشرقية من البوابه حيث يمكن بعد حساب نسبة انحدار الممر تقدير ارتفاع السور .

يتخلل سور اللبن ومن كلا الجانبين الشمالي والجنوبي ابراج ضخمة من اللبن ترتفع عن مستوى سطح السور وتبرز عنه تاركة طريقاً ضيقاً بينها وبين وجه الغلاف الحجري لايتجاوز عرضه الثلاثة امتار . ومن هذه الابراج برجان ضخمان يحيطان بالمدخل الامامي للبوابة يرتفع كل منها الى مستوى سطح القاعة الى ارتفاع ١٠و١٧ مترا ويبلغ طول الضلع الامامية لكل برج ٦٠و١٣ مترا ويناظر هذين البرجين في الجهة الجنوبية من السور وعلى المدخل الخلفي للبوابة برجان اخران يرتفعان الى نفس المستوى الا ان طول اضلاعهما الاربعة تختلف قليلا «انظر المخطط رقم

وقد شيدت جميع الابراج على مصطبة من اللبن الطري وتبين ان الرمل الجاف قد استعمل في الاجزاء السفلى من المصطبة بدلا من الطين المادة اللاصقة المستعملة وذلك لمنع تسرب الرطوبة الى المصطبة ومنها الى جدران القاعة.

كما استعملت مادة ثانية بين طبقات اللبن لمنع تسرب الرطوبة

اولا ولربط قطع اللبن من الانزلاق والميلان الى الامام والجانب ثانياً وتشير الاثار الباقية من هذه المادة الى انها مادة عضوية من المحتمل جدا انها نوع من الحصير .

اما طريقة بناء الابراج المرتفعة فقد اتبع نفس الاسلوب المتبع في بقية اجزاء البوابة وذلك بتضييق المسافة كلما ارتفع البناء وتبلغ نسبة الجميع في الابراج ثلاث سنتمترات في المتر الواحد . وقد كشفت البعثة عن اثار دور ثان في الجهة الغربية من السور تتالف من بعض قطع الاجر والحجارة التي شيدت بهيئة جدار قليل الارتفاع كما عثر على بعض كسر الفخاز وحرتين كما عثر على بعض اثار هذا الدور في الجهة الشرقية من السور وهي من عبارة ارضية من الحصى ولم يعثر الا على بعض الكسر الفخارية فوق هذه الارضية .

المدخل الرئيسي :

يتألف المدخل الرئيسي للبوابة من :

أ–المدخل الامامي

ب–القوس الذي ينفذ الى القاعة .

أ–

تبلغ مساحة المدخل الامامي ٦٢ متراً مربعاً وارضيته هي سطح مصطبة اللبن التي ترتفع عن الارضية الخارجية وتحيط بالمدخل من اليمين واليسار ابراج اللبن ومن المحتمل جداً ان

هذا المدخل كان مسقفا بالخشب واللبن وبسقف مستو خلافاً لسقف القاعة نظرا لعثورنا على آثار الخشب المستعمل في السقيفة ولعدم عثورنا على اجر مفخور يمكن ان يكون مادة لبناء السقف وقد دفعنا الى الاعتقاد بان المدخل كان مسقفاً : اولا ان جدارن المدخل التي هي في الواقع وجه ابراج اللبن المحيطة بالمدخل ، مغلفة بقطع من الرخام على ارتفاع ١و٥ متراً والرخام يستعمل عادة في الابنية الاشورية المسقفة فقط وثانياً ان وجه ابراج اللبن هذه مشيدة بشكل قائم خلافاً لبقية اوجه الابراج .
وثالثاً عدم ملاحظتنا لاثار مياه الامطار وعوامل التعرية الاخرى على اوجه ابراج اللبن المكونة لجدران هذا المدخل نظراً لوقوعها تحت السقيفة .

وفي دور متأخر وعند ضعف المدينة عسكرياً اضيف جدار من اللبن سمكه ٩٠ سنتميتراً الى الجانب الايسر من المدخل مغطياً بذلك قطع الرخام التي تغلف الجزء الاسفل من الجدار كما اضيف جداران اخران في الجزء الامامي من المدخل لتضييق المدخل اولا ولعمل منحدر يؤدي الى اعلى الغلاف الحجري الذي كان قد انهار جزئياً ثانياً .

ويرقى الى المدخل الامامي بواسطة منحدر ترابي يبدأ على بعد ٣٠ متراً تقريباً وينتهي قبل ارضية المدخل بحوالي المترين . وهنا تعترضنا مشكلة مبهمة وهي هل ان المسافة الواقعة بين نهاية المنحدر وبين ارضية المدخل مكسورة في ادوار متأخرة وان المنحدر كان في الاصل يستمر الى ان يصل الى ارضية المدخل الامامي ام ان المنحدر اصلا ينتهي على بعد مترين من بداية

ارضية المدخل الامامي . ورغم اننا لم نتمكن بعد من حل هذه المشكلة الا انه من المحتمل ان المنحدر ينتهي على بعد مترين من بداية ارضية المدخل الامامي وان المسافة بين نهاية المنحدر وبداية المدخل كانت اول الامر خندقاً اصطناعياً استعمل في اوقات الحرب وهجوم الاعداء لعرقلة سير جنود الاعداء ولعله كان يملأ بالمياه او تضرم داخله النار اما وقت السلم فلا بد وان كان هناك جسر خشبي متحرك يرفع في حالة الطواريء اي على غرار القلاع الاوربية في القرون الوسطى ومما يؤكد هذا الاحتمال اننا عثرنا عند نهاية المنحدر الحالية على بعض اللبنات المبنية لعلها تكون جزءا من الجدار الذي ينتهي عنده المنحدر كما ان عثورنا على بعض قطع الحجر المنحوت في المسافة المحصورة بين نهاية المنحدر وبداية المدخل يدل دلالة واضحة على ان هذه المسافة كانت محفورة منذ الزمن الاشوري او على اقل تقدير منذ سقوط المدينة .

ب ـ القوس . .

تم اكتشاف القوس الرئيسي للبوابه والذي يعتبر القوس الاشوري الكامل الوحيد حتى الان اثناء قيامنا بتحديد جدران قاعة الحرس حيث اعترضتنا بعض اللبنات المشيدة بشكل عمودي خلافاً لبقية اللبن وبما ان موقع هذه اللبنات كان مقابلا لمدخل القاعة الجنوبي فقد كان واضحاً ان هذه اللبنات ماهي الا الجزء الاعلى من قوس المدخل . فبدأنا بالحفر امام هذه اللبنات فظهر لنا القوس كاملا الا من بعض الاجزاء العليا وعليه اثار الحريق واضحة

وقد بدأنا باستظهار وجه القوس الداخلي اي من داخل القاعة ثم انتقلنا بعدها الى الوجه الخارجي الى ان وصلنا الى ارضية المدخل الامامي وارضية القاعةمن الجهة الثانية وتبين لنا بان المدخل كان قد ضيق بجدار سميك من اللبن اثناء ضعف المدينة وازدياد الهجمات عليها وقد ترك مدخل صغير نسبيا مثلث الشكل ومن المحتمل ان الاشوريين المتاخرين قد اضطروا الى سد المدخل نهائيا بجدار اخر من اللبن لم نتاكد من وجوده بعد.

يبلغ ارتفاع القوس من ارضية المدخل الامامي وحتى اعلى نقطة فيه حوالي سبعة امتار ونصف المتر بينما يبلغ سمكه ١و٥ مترا اما عرضه من الاسفل فيبلغ ٤٠و٤ مترا وعرضه عند قاعدة القوس ٨٠و٣ مترا . ورغم عدم وضوح قمة القوس نتيجة للضغط الهائل الواقع عليه فاننا نرى بان الجزء الاعلى من القوس كان على شكل نصف دائري ثم تنفرج اضلاع القوس كلما اتجهنا نحو الاسفل ومما يؤيد هذا الرأي اضافة الى شكل القوس في حالته الحاضرة شكل قوس النافذه الصماء المكتشفة في الضلع الغربي من القاعة وشكل قوس الممر المؤدي الى اعلى السور المكتشف في الضلع الشرقي من القاعة وكلا القوسين نصف دائري في جزءه الاعلى .

وقد شيد القوس بثلاث صفوف عمودية من اللبن الطري يفصلها عن البعض صفوف من اللبن الطري المشيد افقيا وبهذا يكون سمك القوس من الاعلى ٥٠و١ مترا . وقد

استعمل الاجر المفخور لبناء واجهة اركان القوس الامامية فقط .
اما ارضية المدخل الرئيسي التي يعلوها القوس فهي مرصوفة بالرخام «المرمر الازرق» كذلك غلفت جدران هذا المدخل وعلى ارتفاع ١و٥ مترا بالرخام ويظهر ان المدخل كان يغلق من داخل القاعة بواسطة باب خشبي ضخم ذي صفحتين حيث عثر على قضيبين من الحديد ملتصقين بالركن الايسر من داخل القاعة يبلغ طول القضيب ٣٠ سنتمترا ومن المحتمل ان هذه القضبان كانت تستعمل لتثبيت الباب الخشبي في الاركان كما عثرنا على اماكن ارتكاز صفحتي الباب الخشبي على جانبي المدخل وذلك تحت مستوى ارضية القاعة بثلاثين سنتمترا . وهي عبارة عن كتلتين من النحاس مكعبة الشكل يتوسط كل منها حفرة صغيرة هي محل ارتكاز الباب الخشبي كما عثرنا على حفرة مشابهه غير انها منحوته من الحجر في وسط المدخل لارتكاز صفحتي الباب الخشبي عند غلقه . اضافة الى ذلك فان اثار الباب الخشبي المحروق واضحة للعيان على ركني القوس وعلى ارضية القاعة امام المدخل حيث عثر على كميات كبيرة من الكاربون . ونظرا لان القوس في حالة متصدعة فقد ارتات الهيئة تركه كما هو عليه الان دون ان تنفذ خلاله لحين استكمال صيانة القاعة وابراج اللبن وعمل سقيفة لهذا القوس لتتمكن بعدها من صيانة القوس بصورة علمية دقيقة .

قاعة الحرس :

تم تحديد مخطط القاعة في الايام الاولى من بدء الحفريات حيث اضطرتنا الاحوال الجوية الى الانتقال من السفح الشمالي الى السفح الجنوبي وقد ظهرت لنا معالم جدار سميك من اللبن الطرى مواز لامتداد التل ينعطف نحو الشمال ثم الشرق مكوناً بذلك الركن الشرقي من مدخل القاعة من داخل المدينة وقد استمر العمل في تتبع هذا الجدار الى ان تمكنا من تحديد الجدران الاربعة للقاعة وظهر بانها مستطيلة الشكل تقريباً اطوال اضلاعها ٢٥و٦٥و٦ و٢٥ و ٤٠و٦ مترا وينفذ اليها من خارج السور من خلال القوس الرئيسي للبوابة وينفذ منها الى داخل المدينة من خلال قوس مشابه للقوس الرئيسي تماماً ومقابل له غير ان عوامل التعرية الطبيعية ووقوع هذا القوس في سفح التل ادى الى انهيار الجزء العلوي منه . وبعد سقوط نينوى انهارت الاتربة داخل القاعة وتراكمت فيها وقد استمر العمل في ازالة الاتربة والاجر المفخور المتراكم داخلها وتمكنا من تحديد ارتفاع جدران القاعة بالنسبة الى القوس الرئيسي كما تبين لنا بان القاعة كانت مسقفة بقوس طولي مشيد بالاجر المفخور يعلو القاعة وهناك عدة امور دفعتنا الى هذا الاعتقاد اهمها :

١ـ العثور على كميات هائلة من الاجر المفخور داخل القاعة وعدم العثور على مثل هذه الكميات من الاجر في اي

منطقة اخرى من البوابه ولايمكن تفسير وجود هذه الكميات من الاجر داخل القاعة الا بانها كانت مادة بناء السقيفة حيث ليس من المحتمل ان يكون هذا الاجر قد استعمل لرصف القاعة او لتغليف الجدران خصوصاً واننا قد عثرنا عليه في الطبقات العليا كما لايمكن القول بان هذا الاجر كان مادة لبناء الشرفات فوق سطح القاعة والابراج والا كيف يفسر سقوطه جميعا داخل القاعة ولماذا كانت قياساته بالشكل الموصوف ادناه ؟

٢ـان قياسات واحجام الاجر المفخور المكتشف داخل القاعة تتلائم وبناء قوس نصف دائري او اي شكل آخر مقارب لذلك فهناك كميات كبيرة من الاجر على شكل شبه منحرف وبقياسات مختلفة اضافه الى الاجر المستطيل والمربع الشكل وهذا يعني ان الاجر شبه المنحرف ذو الضلع القصير استعمل لبناء الصف الاول من القبو بينما استعمل الاجر شبه المنحرف ذو الضلع المتوسط في بناء الصف الثاني واخيرا استعمل الاجر الاكبر حجماً في بناء الصف الثالث من القبو على نفس الاسلوب الذي شيد فيه القوس الرئيسي وقوس الممر المؤدي الى سطح السور وقوس النافذة الصماء اما الاجر المستطيل والمربع فقد استعمل على اغلب الظن لبناء الازارة تحت القبو مباشرة وربما لرصف سطح القاعة ايضاً

٣ـالعثور على بعض قطع الاجر متطعبا العرضي شبه منحرف اى ان سمكها عند احد اضلاعها اكثر من سمكها عند الضلع المقابل وهذا النوع من الاجر يستعمل عادة لسد قمه القوس اى «كمفتاح» كما يعبر عنه البناؤون ويلاحظ ان هذا النوع من الاجر قد استعمل في بناء القوس الرئيسي وقوس الممر ايضا .

٤ـ لو لم تكن القاعة مسقفة بالاجر المكتشف لكان لابد ان نكشف عن اثار مادة البناء الاخرى «وهي الخشب» غالبا المستعملة لبناء السقيفة غير اننا لم نعثر على اثار طى مادة اخرى يمكن ان تكون مادة لبناء السقيفة بينما عثرنا على اثار الباب الخشبي امام القوس الرئيسي .

من هذا يتضح جليا بان القاعة لابد وان كانت مسقفة بقبو طولي وقد تمكنا من تحديد شكل هذا القبو وذلك برصف الاجر شبه المنحرف المكتشف جنبا الى جنب فكان قطر القوس الناتج مطابقا لعرض القاعة .

اما جدران القاعة فمشيدة باللبن الطرى ومغلفة بطلاء سميك من الطين وقد غلفت اجزاءها السفلى وعلى ارتفاع ١و٥ مترا بقطع من الرخام الازرق المستطيلة الشكل ولم يعثر على جميع قطع الرخام حيث يظهر ان بعضها كان قد نقل في فترة متاخرة من العهد الاشوري بينما لم يوضع البعض الاخر في محله نهائيا كما تشير الى ذلك طريقة بناء الجدران واستمرار ارضية القاعة الى محل قطع الرخام

ومما لاريب فيه ان هذا يدل على ان العمل في القاعة كان قد ترك قبل الانتهاء منه ويؤيد هذا الرأى ان بعض قطع الرخام لم تنحت او انها نحتت جزئياً .

وقد كشف في الضلع القريب من القاعة نافذة صماء ترتفع ارضيتها عن ارضية القاعة ٧٠و٣ مترا ويبلغ عرض النافذة من الاسفل ٣٠و١ مترا يعلوها قوس نصف دائري مشيد بنفس الاسلوب الذي شيدت فيه بقية الاقواس المكتشفة ويبلغ طول قطر القوس ١٠و١ مترا بينما يبلغ ارتفاع النافذة من القاعدة حتى اعلى نقطة في القوس ٤٥و١ مترا وعرضها من الاسفل ٩٠ سنتمترا ويضيق عرضها من الاعلى ويصل الى ٧٥ سنتمترا

ومن المحتمل ان النافذة لم تكن تستعمل لوضع المسارج او كخزانة لحفظ بعض الالات والادوات نظرا لارتفاعا النسبي بل انها كانت تستعمل لوضع تماثيل اله المدينة الحارس اولوضع بعض القطع التي لاتستعمل الا نادرا ورغم ذلك فقد عثرنا داخل النافذة على جرة كبيرة في داخلها اثار سائل اسود اللون لعله نوع من الخمر كما عثرنا على منشور مثمن الشكل تحت النافذة مباشرة وهو مكسور الى عدة قطع لعله مسقط من النافذة .

اما في الضلع الشرقي من القاعة .فقد كشف عن قوس نصف دائرى كامل اخر هو مدخل الممر المؤدي الى سطح السور وهو مشيد باللبن الطرى وبنفس اسلوب القوس الرئيسي وقوس النافذة الصماء.ويبلغ ارتفاع القوس ٦٠و٢ مترا وعرضه ٧٠و٢ مترا وقد غلفت ارضية مدخل

الممر والاجزاء السفلى من جدرانه بالرخام المشابهة الى رخام جدران القاعة والقوس الرئيسي وقد ادى الضغط الهائل الواقع عليه الى انهيار الاجزاء الخلفية منه ولم يبق منه سوى الوجه وقد حاولنا المحافظة على هذا القوس واضطررنا الى ترك الاتربة المتراكمة داخل الممر خوفاً على القوس من الانهيار .

واثناء رفع الاتربة المتراكمة داخل القاعة اعترضتنا بعض جدران اللبن المتأخرة في كلا الجانبين الشرقي والغربي من القاعة وقد تبين بان الجدران المشيدة في الجزء الغربي من القاعة كانت قد شيدت على ارضية القاعة الاصلية بينما بنيت الجدران في القسم الشرقي من القاعة على ارضية متأخرة ترتفع عن ارضية القاعة باكثر من خمسين سنتمتراً .

وترتفع الجدران الى مايقرب من ثلاثة امتار ففي الجزء الغربي من القاعة كشف عن جدار يبلغ ١٠ر١ متراً يقطع الجزء الغربي من القاعة نهائياً وينفذ الى هذا الجزء من خلال مدخل صغير يتوسط الجدار وهو مستطيل الشكل يبلغ ارتفاعة متراً وعرضة ٩١ سنتمتراً مسقف بالخشب واللبن حيث عثر على اثار الخشب المستعمل لتسقيفة وهناك جدار طولي في الجزء الغربي من القاعة يظهر انه شيد في فترة متأخرة ويفصل جزءا من القاعة بشكل غرفة او مخزن صغير رصف بقطع مكسورة من الرخام المستعمل في تغليف جدران القاعة وقد عثر في هذا الجزء من القاعة على هيكل عظمي منبسط فوق عدد كبير من كسر الفخار ويحيط بالهيكل عدد كبير من الجرار الكبيرة الحجم مما يشير الى ان الغرفة كانت تستعمل كمخزن للنبيذ .

اما في القسم الشرقي من القاعة فقد كشف عن جدار سمكه ٤٠ سنتمتراً وله مدخل صغير وعن جدار طولي اخر وثالث عرضي وتؤلف هذه الجدران غرفة طويلة مستطيلة الشكل مساحتها ٢/٦٠×٦/٢٠متراً وثانية مساحتها ٦٠ر٤×٦٠ر٣ متراً وثالثة مساحتها ٦٠ر٣×٢٠ر١ مترا وقد رصفت الغرفة الصغيرة بالاجر المفخور وفي زاويتها الشمالية عثر على جرة فخارية فوهتها بمستوى سطح الارضية عثر في داخلها على قدح فخاري صغير مما يدل على ان الجرة كانت تستعمل كحافظة لماء الشرب او لبعض السوائل الاخرى كما عثر على موقد نار في الغرفة الثانية وجرة مشابهة للجرة الاولى في داخلها قدح صغير .

مواد البناء .

اللبن الطري : استعمل اللبن الطري لبناء معظم اجزاء البوابة والسور كما هي الحالة في الابنية العراقية القديمة — قاطبة فبنيت جدران القاعة ومداخلها واقواسها الضخمة والابراج المحيطة بها باللبن الطري ولم يستعمل الاجر المفخور الأفي مناطق محدودة ويظهر من الجدران المكتشفة ان اللبن المستعمل في العهد الاشوري يشبه الى درجة كبيرة اللبن المستعمل في الوقت الحاضر فهو مستحضر بطريقة مزج الطين بالتبن ومخمر تخميراً جيدا ولعل فترة التخمير كانت اطول من الفترة التي يخمر فيها اللبن في الوقت الحاضر نظرا لمقاومة اللبن الاشوري للعوامل الطبيعية المختلفة كما استعملت

القوالب الخشبية على اغلب الظن لصب اللبن وتقطيعه . وكان الطين يستعمل كمادة لاصقة بين قطع اللبن وان استعمل الرمل الجاف في بعض الأجزاء السفلى من البناء بدلا من الطين منعا لتسرب الرطوبه اضافة الى استعمال نوع من الحصير بين طبقات اللبن لمنع تسرب الرطوبة ايضا ولتقوية تماسك جدران اللبن . اما طلاء الجدران فكان بالطين المخمر تخميراً جيدا والمنقى من جميع الشوائب ويشير طلاء الجدران المكتشفة الى ان الاشوريين كانوا يقومون باعادة طلاء الجدران مرة كل بضع سنوات حيث عثر على عدة طبقات من هذا الطلاء على الجدار الواحد يختلف الواحد عن الاخر من حيث نوعية التربة . ولايستبعد ان كان للاشوريين طريقة خاصة لتحضير الطلاء لكي يقاوم مياه الامطار وحرارة الشمس .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان مشكلة صيانة جدران اللبن تعتبر من اعقد المشاكل التي تواجه علماء الاثار المختصين باثاربلاد وادي الرافدين حيث لم يتوصل العلماء بعد الى طريقة علمية ناجحة لصيانة جدران اللبن رغم المحاولات المبذولة في هذا الشان ولعل انجح الطرق في رأينا ان يعاد بناء الجدران بنفس الطريقة التي بنيت فيها في العهد الاشوري على ان يستحضر اللبن بطريقة دقيقة ويخمر تخميرا جيدا وعلى ان يعاد طلاء الجدران مرة كل سنة او سنتين .

كانت احجام اللبن المستعملة في بناء جدران القاعة والابراج متساوية الا من حيث السمك فجميع قطع اللبن مربعة الشكل

تقريباً طول ضلعها ٣٨ سم اما سمكها فيتراوح بين ١٢-١٨ سم تقريباً .

الاجر المفخور

استعمل الاجر المفخور لبناء سقيفة القاعة كما استعمل لبناء جزء صغير من واجة القوس الرئيسي وواجة قوس المدخل الخلفي كما عثر على بعض قطع الاجر المستعمل في رصف جزء من القاعه في فترة متأخرة . وكما ذكر سابقا فان احجام الاجر المفخور الذي عثر عليه داخل القاعة مختلفة فمنه شبه المنحرف ومنه المربع والمستطيل ويمكن اجمال قياسات الاجر المكتشف كما يلي :

١٦×٣٨×٤٨سم
٣٥×٣٥×٩ سم
٤٠×٣٣×٥/٨ سم
٢٨×٣٦×٨سم

كما عثر على عدد كبير من الاجر المختوم باسم الملك سنحاريب ومن الجدير بالذكر ان بعض قطع الاجر المكتشفة ملونة بعدة الوان يغلب عليها اللون الازرق والبني والاسود وبعضه مزججاً .

وتبين من قلة استعمال الاجر المفخور انه لم يكن يستعمل الا في البنايات المهمة وعلى نطاق محدود نظرا لارتفاع كلفة عمله اذا قورن باللبن الطري .

الرخام :

يلاحظ في جميع الابنية الاشورية ان الرخام لم يستعمل الا في الاماكن المسقفة نظراً لطبيعة حجر الرخام وعدم مقاومته لمياه الامطار وقد استعمل الرخام في البوابة لتغليف الاجزاء السفلى من جدران القاعة كما استعمل لرصف ارضية المدخل الرئيسي للبوابة . وقطع الرخام المستعملة كبيرة الحجم مستطيلة الشكل معدل قياساتها ٢٠ر٢ × ٥٠ر١ متراً ويظهر من طريقة النحت انها كانت تجلب الى محل البناء مقطعة حسب الحجم المطلوب محمولة على عربات تجرها الحيوانات حيث يظهر في الجزء الاسفل من كل قطعة حفرتين لعلها محل تثبيت قطعة الرخام على العربة وبعد جلبها الى محل البناء تنحت نحتاً اولياً بواسطة فأس مدبب الرأس وتصقل مساحة مستطيلة الشكل معدل مساحتها ٨٠ × ٣٠ سنتمتراً في ظهر كل قطعة ليكتب عليها ختم الملك ومن ثم تثبت في محلها المعين وبعدها يصقل الجزء الظاهر منها بواسطة فأس اعتيادية . وتظهر طريقة النحت هذه واضحة في قطع الرخام المستعملة لتغليف جدران القاعة حيث ترك بعضها دون صقل والبعض الاخر مصقول جزئياً مما يدل على ان العمل في القاعة لم يكمل نهائياً ويتفاخر الملك سنحاريب باعادته بناء نينوى وبواباتها في الختم المنقوش على ظهر كل قطعة من قطع الرخام حيث يذكر النص :

(m. d.) Sin - ahe (mes) - eriba
sar kissati sar (mat) Assur
dura sal-hu-u sa Ninua
es - sis u - se - pis ma
u - zaq - qir hur - sa - nis

«سنحاريب ملك الكون . ملك بلاد اشور .
اعدت بناء سور نينوى الداخلي والخارجي مجددا ورفعته بارتفاع الجبال » وتشير احدى قطع الرخام المكتشفة في الزاوية الشمالية الغربية من القاعة الى ان الكاتب كان يكتب النص المراد نقشه على القطعة بواسطة قلم احمر اللون ومن ثم يقوم النحات بتتبع الخطوط الحمراء لحفر الكتابة حيث يظهر من القطعة المكتشفة ان النحات لم يقم بعمله بصورة دقيقة فترك جزاء من العلامات المسمارية دون حفر فظهرت الخطوط الحمراء]
الصخر (الحلان) :

استعمل الصخر (الحلان) لبناء الغلاف الحجري وتغليف الاجزاء السفلى من وجه ابراج اللبن الداخلية ويظهر من نوعية الصخر المستخدم انه قد جلب من المناطق القريبة من نينوى ربما من منطقة الشريخان والرشيدية وتلكيف . وقد نحت الصخر المستخدم في وجه الغلاف بنفس الطريقة المستعملة في الوقت الحاضر والمعروفة محلياً بالبازي ولم يهتم البناء الاشوري بطول قطعة الصخر بل ان اهتمامه كان محصوراً بارتفاع قطعة الصخر فقط . اما القطع المستعملة في تغليف الاجزاء السفلى من الابراج

الداخلية فهي مشابهة من حيث الحجم والشكل لقطع الرخام ويلاحظ ان استعمال الحجر الحلان كان في المناطق المكشوفة والمعرضة للامطار نظراً لقوة الحجر ومقاومته لعوامل التعرية الطبيعية . وقد نقش في ظهر كل قطعة نفس النص المكتوب في ظهر قطع الرخام والخاص بالملك سنحاريب واعادته بناء نينوى .

مواد اخرى :

من المحتمل جداً ان الخشب استعمل لبناء سقيفة المدخل الامامي والمدخل الخلفي للقاعة حيث عثر على اثار قطعة من الخشب طولها اربعة امتار كانت قد سقطت في المدخل الامامي كما استخدم الخشب في تسقيف احد المداخل الصغيرة في الجدران المتأخرة داخل القاعة اضافة الىاستعماله لعمل باب القاعة الرئيسي .

كما عثر على كميات كبيرة من الاسفلت على شكل طبقات سمكها ٥ ستمترات تقريباً مما يدل على انها كانت تغلف سطح القاعة كطبقة عازلة لمنع تسرب المياه وقد ذكرت مدينة هيت والقيارة في النصوص المسمارية على انها مصدر القير والاسفلت بالاضافة الى الموادا لمذكورة اعلاه فهناك بعض المواد الاخرى المستعملة في بناء القاعة مثال الحديد المستعمل كسامير لتثبيت الباب الخشبي .

اهم الملتقطات الاثرية :

عثر اثناء التنقيب على بعض الملتقطات الاثرية المهمة ويجد القارئ موجزا لجميع ما اكتشف في الموقع في ملتقطات نهاية هذا المقال وفيما يلي شرحا مفصلا لاهم تلك الملتقطات :

١ ـ المنشور الفخاري : كان من اهم ماعثر عليه في بوابة ادد هو المنشور الفخاري المثمن الشكل والمكتوب بالخط المسماري الدقيق وباللغة الاكدية. ويحوي المنشور على وصف مفصل لحملات الملك سنحاريب واعماله العمرانية وتبين من حجم المنشور انه يحوي على الحملات الاربعة الاولى التي قام بها سنحاريب وقد كانت عادة الملوك الاشوريين ان يدونوا تفصيلا لاعمالهم العسكرية والعمرانية على منشور اواسطوانة فخارية توضع لاعمالهم كحجر اساس عند بناء اواعادة بناية مهمة .

والمنشور المكتشف في بوابة ادد ذو ثمانية احرف ويبلغ طول الحرف الواحد ٣٧ سنتمترا وعرضه ٧ سم مثقوب طوليا من الوسط ولعل الطريقة كانت ان يوضع المنشور على قضيب خشبي اومعدني ثم يبدأ الكاتب بكتابة الاحرف تباعاً وبعد الانتهاء من ذلك يتم فخره وقد عثر على المنشور في القسم الايمن من قاعة الحرس وعلى ارضية القاعة وهو مكسور الى اربع كسر وقد فقدت بعض اجزاءه ويظهر انه كان محفوظا في النافذه الصماء الواقعة في الضلع القريب من القاعة ثم سقط منها على ارضية القاعة .

تم العثور حتى الان على اربعة هياكل عظمية بشرية تعود الى العهد الاشوري المتاخر «القرن السابع قبل الميلاد» وقد تبين ان اصحاب الهياكل العظمية الاربعة كانوا قد قتلوا اما اثناء المعركة التي دارت في نينوى عند سقوطها او عند انهيار الابنية وسقوطها عليهم وقد عثر على الهيكل العظمي الاول على عمق ثلاثة امتار من سطح التل في داخل القاعة وتبين بعد فحص الهيكل بان صاحبه كان قد اصابه سهم في نهاية العمود الفقري عند عظم الحوض وعثر على السهم النحاسي وهو في داخل الهيكل كما لوحظ ان الجمجمة مفقودة ويتبين من وضعية الهيكل العظمي بانه يعود الى احد حراس المدينة الذين كانوا يدافعون عنها من فوق سطح القاعة وبعد نشوب الحريق في المدينة انهار سقف القاعة ووقع احد الحراس فيها بعد ان اصيب بسهم من العدو.

كما عثر على هيكلين عظميين آخرين داخل قاعة الحرس احدهما في القسم الايمن منها والثاني في القسم الايسر وكلاهما على ارضية القاعة ويتبين ان صاحب الهيكل الاول كان في المخزن الخاص بالشراب حيث وجد ممددا على قفاه ويحيط به عدد من الجرار الكبيرة الخاصة بالشراب ثم سقط عليه سقف القاعة اما الهيكل الثاني فقد عثر عليه ممددا تحت الجدار الشمالي من القاعة ومما يؤسف له اننا لم نتمكن من المحافظة تماماً على هذه الهياكل رغم المحاولات التي بذلت

في هذا الشان نظراً لانهيار بعض اجزاء جدران القاعة فوقها

اما الهيكل العظمي الرابع فقد عثر عليه خارج السور امام الضلع الغربي من المدخل الرئيسي مباشرة ويظهر ان صاحبه كان قد قتل نتيجة انهيار الغلاف الحجري عليه وقد وجد الهيكل تحت قطع الصخر مباشرة وعلى الارضية الخارجية وتشير وضعية الهيكل الى ان صاحبه كان يحاول بيديه ان يدفع عنه خطر سقوط تلك الصخور . وقد تمكنت الهيئة بمساعدة اساتذة كلية الطب في جامعة الموصل من المحافظة على الهيكل وذلك بطلاءه بمادة كيمياوية خاصة ويمكن للزائر ان يشاهد الهيكل في مكانه الاصلي .

والهياكل العظمية الاربعة خاصة باشخاص من الذكور تتراوح اعمارهم بين ٢٥-٣٥ سنة وان احجامهم كانت ضخمة نسبياً حيث يتراوح طول الشخص بين ١٨٠-١٩٠ سنتمترا .

ومن المتوقع ان يعثر على بعض الهياكل العظمية الاخرى على ارضية المدخل الخلفي للقاعة والمؤدي الى داخل المدينة غير انا آثرنا الكشف عنها ريثما تتم صيانة القاعة ليتسنى لنا المحافظة على تلك الهياكل .

هذا وتعمل الهيئة الان على استكمال الكشف عن اجزاء البوابة واعادة صيانتها الى ماكانت عليه سابقاً وقد بدأت فعلاً في صيانة السور الصخري واجزاء من ابراج اللبن كما باشرت بصيانة القاعة ومن المتوقع انينتهي العمل فيها خلال هذه السنة وستنشر نتائج الصيانة في مقال آخر .

الملتقطات الاثرية

التسلسل	الوصف	المادة	القياس	رقم اللوحة
١	جرة صغيرة مفقودة الفوهة بنية اللون وعلى سطحها الخارجي ندب بيضاء صغيرة وشوائب مختلفة .	فخار	ع ٦ سم ق ٢ ر ٥ سم قق ٥ ر ٢ سم	لوحة رقم ١/١
٢	اناء فخاري ذو فوهة واسعة لها حافة مائلة الى الخارج جزء منها مفقود والاناء ذو بدن كروي مفلطح وعلى كتف البدن ثلاثة حزوز تبنية اللون وعلى سطح الاناء آثار سائل اسود اللون .	فخار	ع ٣ ر ٧ سم ق ٩ سم قق ٥ ر ٢ سم س ٤ ملم	٢/١
٣	جرة متوسطة الحجم ذات فوهة دائرية واسعة مفتوحة الى الخارج وعنق قصير عليه عروة واحدة والبدن بيضوي الشكل مزين بحزين على الكتف ويرتكز على قاعدة دائرية واسعة نسبياً طينتها التبنية مائلة الى الاخضرار وعليها شوائب رملية .	فخار	ع ٢٣ سم ق ٧ ر ٧ سم قف ٩ر٧ سم قق ٧ر٧ سم	٣/١
٤	قنينة صغيرة مخروطية الشكل ذات عنق صغير ينتهي بفوهة مستديرة والقاعدة مدببة . الطينة صفراء مصقولة عليها آثار طلاء وردي اللون .	فخار	ع ٧ ر ١١ سم ق ٥ ر ٥ سم ق ف ٥ر٢ سم	٤/١

التسلسل	الوصف	المادة	القياس	رقم اللوحة
٥	قنينة صغيرة اسطوانية الشكل ذات عنق متوسط الطول وعليه نتوء دائري ينتهي بفوهـة مستديرة حافتهـا مشطوفة الى الخارج والقاعـدة شبه مدببة . طينتها تبنية مائلة الى الاصفـرار عثر عليهـا وبجانبها قطعة من الفخار على شكل غطاء مكسور من المحتمل انه غطاء القنينة .	فخار	ع ٢ ر ١٢ سم ق ٥ ر ٤ سم ق ف ٤ ر ٣ سم	٥/٢
٦	قنينة كمثرية الشكل مدببة القاعدة لها عنق ينتهي بفوهة مستديرة حافتها مشطوفة الى الخارج . طينتها بنية اللون فيها شوائب رملية .	فخار	ع ٥ ر ٩ سم ق ٧ ر ٥ سم ق ف ٤ ر ٢ سم	٦/٢
٧	قدح رقيق دقيق الصنع مخروطي البدن قاعدته مفقودة والقدح عنـق عريض ينتهي بفوهة مستديرة مفلطحة الى الخارج وعلى العنق والبدن ثلاث مجموعات من الحزوز تحتوي كل منها على ثلاثة حزوز وعلى البدن اثار رصعـات للاصابع . الطينة تبنية مائلة الى الاخضرار .	فخار	ع ٨ سم ق ٧ سم ق ف ٧ ر ٦ سم	٧/٢
٨	قنينة صغيرة مخروطيـة الشكل ذات قاعدة مدببة وعنق قصير ينتهي بفوهة	فخار	ع ٢ ر ١١ سم ق ٥ ر ٤ سم	٨/٣

ت	الوصف	المادة	القياس	رقم اللوحة
	مستديرة مشطوفة الحافة . طينتها تبنية مائلة الى الاصفرار .		ق ف ٣ر٢سم	
٩	مسرجة فخارية ذات فوهة واسعة حافتها مشطوفة للخارج وقد فقد انبوب المسرجة. طينتها بنية وعليها اثار الحرق.	فخار	ع ٨ ر ٥ سم ق ف ٢ر٩سم	٩/٣
١٠	جرة بيضوية الشكل متوسطة الحجم ترتكز على قاعدة مستديرة وتنتهي بفوهة صغيرة مفقودة وجدت مكسورة الى علة كسر.. طينتها تبنية مائلة الى الاخضرار	فخار	ع ٨٤ر١٣ سم ق ٢ ر ١١سم ق ق ٥ ر٦سم	١٠/٣
١١	قدح دقيق الصنع ذو بدن مخروطي الشكل ينتهي بقاعدة قرصية بارزة صغيرة وللقدح عنق عريض وعليه نتوء بارز ينتهي بفوهة مفلطحة الى الخارج وقد زين القدح بمجموعتين من الحزوز والرصعات عثر عليه مكسورا عدة كسر الطينة تبنية مائلة الى الاخضرار .	فخار	ع ٦ ر ١٠ سم ق ف ١٠ سم	١١/٣
١٢	جرة بيضوية الشكل ذات عنق طويل نسبياً ينتهي بفوهة مستديرة لها حافة سميكة وترتكز على قاعدة شبه ملبية وقد زينت بثلاث حزوز على الكتف والبدن	فخار	ع ٨ ر٢٨ سم ق ١٥ سم ق ف ٧ر٨ سم ق ق ٧ر٢ سم	١٢/٤

	طينتها تبنية مائلة الى الاخضرار . عثر عليها مهشمة .			
١٣	قنينة صغيرة مصقولة كمثرية الشكل لها عنق قصير ينتهي بفوهة مستديرة حافتها مشطوفة الى الخارج وقاعدة القنينة شبه مدببة طينتها تبنية مائلة الى الاخضرار .	فخار	ع ٧ ر ٩ سم ق ٣ ر ٤ سم قف ٤ر٢سم	١٣/٤
١٤	اناء دقيق الصنع رقيق ذو بدن بيضوي الشكل وعليه اثار رصعات الاصابع له عنق طويل ينتهي بفوهة واسعة مستديرة مشطوفة جزئياً الى الخارج. للاناء قاعدة مدببة مصنوعة من طينـة تبنية مائلة الى الاخضرار .	فخار	ع ٢ ر ١٤ سم ق ٤ ر ٧ سم قف ٨ر٢سم	١٤/٤
١٥	صحن مستدير الفوهة والقاعدة مقعرة والحافة مشطوفة الى الخارج جزئياً وبين الحافة والكتف هناك حز مقعر . الطينة تبنية مائلة الى الاخضرار . عثر عليه مكسورة الى ست قطع .	فخار	ع ٣ ر ٥ سم قف١ر١٦سم قق ٣ر ٥ سم	١٥/٥
١٦	قدح دقيـق الصنع رقيـق الحافات غير كامل ذو بـدن مخروطي الشكل مزين باربعة حزوز عـلى الكتف وثلاثة في	فخار	ع ٩ سم ق ٨ سم قف٥ر١٧سم	١٦/٥

	الاسفل وعليه اثار رصعات الاصابع وله عنق محزز وفيه نتوء ينتهي بفوهة مفلحطة الحافة . الطينـة تبنية مائلة الى الاصفرار .			
١٧	جرة صغيرة ناقصة ذات بدن مخروطي الشكل تنتهي بقاعدة شبه مدببة ولها عنق عريض ناقص . طينتهـا تبنية مائلة الى الاخضرار ، عثر عليها مكسورة الى عدة قطع .	فخار	ع ٦ ر ١٠ سم ق ٤ ر ٧ سم ق ق ٥ ر ١٠ سم	١٧/٥
١٨	قدح دقيق الصنع الجزء الاكبر منه مفقود ذو بـدن مخروطي الشكل يرتكز على قاعـدة شبه مدببـة وقد زين البـدن بمجموعتين مـن الحزوز وعليه اثار رصعات الاصابع .	فخار		١٨/٥
١٩	كسر فخارية رقيقة لقـدح ذي بـدن مخروطي الشكل ينتهي بقاعدة قرصية وقد زين البدن بعدد من الحزوز . الطينة تبنية مائلة الى الاخضرار .		فخار	١٩/٦
٢٠	مسرجة فخارية انبوبها مفقود لها فوهة مستديرة ذات حافة سميكة طينتهـا تبنية		فخار	٢٠/٦

	اللون وعليها اثار الحرق .			
٢١	جزء من اناء فخاري على شكل مشربة صغيرة دقيق الصنع اسطواني الشكل وله قاعدة مستديرة محدبة قليلا . الطينة تبنية مائلة الى الاخضرار .	فخار		٢١/٦
٢٢	جزء من اناء فخاري على شكل مشربة صغيرة اسطواني الشكل مرتكز على قاعدة مستديرة مسطحة الطينة تبنية اللون وفيها بعض الشوائب .	فخار		٢٢/٦
٢٣	الجزء الاسفل من اناء فخاري على شكل مشربة صغيرة سميكة ترتكز على قاعدة مستديرة مقعرة قليلا . طينية تبنية مائلة الى الاصفرار .	فخار		٢٣/٧
٢٤	الجزء الاعلى من قنينة فخارية مخروطية الشكل ذات فوهة مستديرة حافتها مشطوفة من الخارج وعلى العنق نتوء دائري طينتها تبنية .	فخار		٢٤/٧
٢٥	فوهة قنينة فخارية مستديرة مشطوفة الحافة الى الخارج . طينية تبنية .	فخار		٢٥/٧
٢٦	ثلاث كسر فخارية لانابيب مارج	فخار		٢٦/٧

	مختلفة الاحجام وعليها اثار الحرق .			
١٧	جرة كبيرة بيضوية وذات قاعدة مدببة وعنق قصير تنتهي بفوهة مستديرة ذات حافة ملفوفة . طينتهـا تبنية مائلة الى الاخضرار ، عثر عليها مكسورة الى عدة قطع .	فخار		٢٧/٧
٢٨	جـرة كبيرة بيضوية الشكل منقـودة القاعدة والفوهة ذات طينة بنية . عثر عليها مهشمة .	فخار		٢٨/٧
٢٩	جرة كبيرة مخروطيـة الشكل منقودة الفوهة والعنق قاعدتها مدببة. طينتهـا بنية اللون وتظهر عليهـا اثار دولاب الفخار .	فخار		٢٩/٨
٣٠	كسر من الفخـار تكون جزء من جرة كبيرة الشكل مدببة القاعدة ذات فوهة مستديرة . طينتها بنية اللون .	فخار		١٠/٨
٣١	كسر فخارية تكون جزء من جرة كبيرة اسطوانية الشكل تنتهي بقاعـدة قرصية صغيرة ولها فوهة عنق مزين بخطوط بين	فخار		٣١/٨

	دائرتين تنتهي بفوهة مستديرة ملفوفة الحافة .		
٣٢	فوهة وكتف جرة كبيرة . طينتها بنية اللون وحافة الفوهة ملفوفة من المحتمل ان الجرة بيضوية الشكل .	فخار	٣٢/٩
٣٣	فوهة جرة كبيرة وجزء من العنق مستدير ذات حافة ملفوفة طينتها تبنية اللون .	فخار	٣٣/٩
٣٤	فوهة جرة كبيرة مستديرة ذات حافة ملفوفة . طينتها تبنية مائلة الى الاصفرار .	فخار	٣٤/٩
٣٥	الجزء الاسفل من جرة كبيرة مخروطية الشكل ذات قاعدة صغيرة مستديرة . طينتها بنية اللون .	فخار	٣٥/٩
٣٦	كسر فخارية سميكة سمجة الصنع تكون جزء من حوض فخاري كبير الحجم ذي طينة تبنية مائلة الى الاصفرار وعلى سطحها الخارجي اثار القير .	فخار	
٣٧	ثلاث كسر فخارية مختومة بالوردة الاشورية طينية تبنية مائلة الى الاصفرار .	فخار	٣٧/٩
٣٨	كسر من الفخار رقيقة ذات طينة تبنية مائلة الى الاخضرار وقد كتب على	فخار	٣٨/٩

	وجهها كتابة ارامية بالحبر الاسود ومن المحتمل انها رسالة شخصية .			
٣٩	كسرة فخارية سميكة بنية اللون عليها اثار كتابة بالحبر الاسود محتمل انها جزء من رسالة آرامية .	فخار		
٤٠	كسر فخارية متنوعة فيها قواعد وفوهات لاواني فخارية مختلفة الاحجام عثر عليها في مناطق متفرقة من قاعة الحرس.	فخار		٤٠/١٠
٤١	تمثال تذكاري (حرز) صغير من الطين المفخور بدرجة حرارة واطئة يمثل شخصاً اشورياً وقد وضع يديه على صدره وله شعر طويل وملفوف ولحية طويلة ومعالم الوجه واليدين سمحة الصنع كتفه الايمن مكسور وقد بين التمثال رداء الشخص بحزين عموديين .	طين	ع ٦ر١٠ سم ق ق ٥ر٢-٣	٤١/١١
٤٢	تمثال تذكاري (حرز) صغير من الطين المفخور بدرجة حرارة واطئة يمثل اشورياً واقفاً وقد وضع يديه على صدره. يده اليمنى تعلو اليسرى وللتمثال شعر طويل وملفوف ولحية اشورية طويلة	طين	ع ١٠/٨ سم	٤٢/١١

	وقد ملئت الحزوز بمادة بيضاء لعلها من نوع الجص .			
٤٣	تمثال تذكاري (حرز) صغير من الطين المفخور بدرجة حرارة واطئة يمثل شخصاً واقفاً وقد وضع يديه على صدره اليمنى تعلو اليسرى وللتمثال شعر طويل ولحية اشورية طويلة وقد ملئت الحزوز بمادة بيضاء لعلها من نوع الجص .	طين	ع ١٠/٨ سم	١١ ٤٣
٤٤	تمثال تذكاري(حرز) صغير من الطين المفخور بدرجة حرارة واطئة يمثل شخصاً اشورياً واقفاً وقد وضع يديه على صدره وقد فقدت يداه ورأسه لكنه مشابه للتماثيل الثلاثة الاخرى .	طين	ع ٧/٨ سم	
٤٥	تمثال تذكاري (حرز) صغير من الطين المفخور بدرجة حرارة واطئة وهو اكبر نسبياً من التماثيل الاربعة الاخرى يمثل شخصاً اشورياً واقفاً وقد وضع يده اليمنى على كتفه كأنه يحمل شيئاً عليها وقد فقد ساعد الذراع اليسرى ، له شعر طويل ملفوف ولحية اشورية يرتدي	طين	ع ١٤ سم	٤٥/١١

	مثقوبة من الوسط وقد ثقبت من احد جوانبها .		ق ـ سم	
٥٠	صحن من حجر البازلت الاسود دائري الشكل ومنبسط ذو حافة مشطوفة جزئياً الى الخارج تنتهي بنتوء دائري وقد زين الاناء بحز مقعر من الخارج ويرتكز الاناء على قاعدة دائرية بارزة وقد ترك مجال في مكانين من محيط الاناء بدون نتوء وكأنها محل تعليق او محل ارتكاز. عثر عليه مكسورا ثلاث قطع .	حجر البازلت الاسود	ع ٥ر٤ سم القطر ٥ر٣٤سم ق ق ١٤ سم سمك الحافة ٨ ملم	
٥١	مقبض من الحجر لعله مدق توابل واثار استعماله كمدق واضحة على نهايته .	حجر	طول ٥ر٦ ملم قطر ٥ سم	
٥٢	رأس فأس من حجر الصوان صغير لونه يميل الى الخضرة شكله شبه منحرف .	حجر	طول ٤ سم العرض ٥ر٣ـ ٥ر٢ سم	
٥٣	اناء من الحجر دائري الشكل مقعر الوسط يرتكز على ثلاثة ارجل من الحجر وقد ثقب وسط الاناء . الاناء مكسور وجزء منه مفقود ومن المحتمل انه كان يستعمل كمحمل لاحد الجرار الفخارية	حجر		

	لباساً قصيراً وقد ظهرت رجلاه متجهتين الى اليسار وعليهما تقاطيع العضلات القوية ويستند التمثال على قاعدة بيضوية الشكل وقد عثر مع التمثال على قطع نحاسية كانت قد وضعت كحزم للتمثال اضافة الى قطعة نحاسية تشبه الحربة من المحتمل انها كانت بيده اليمنى . وعلى ظهر التمثال حزام يمثل محل وضع السلاح الذي يشبه السيف .		
٤٦	مؤخرة حيوان من الطين المفخور مكسور الارجل يحتمل انه جزء من دمية لخنزير .	طين	
٤٧	قضيب من العاج مكسور من النهايتين وقد زين باربعة مجاميع من الحزوز في كل مجموعة ستة حزوز وفي الجزء الاعلى حزوز تشكل معينات صغيرة من المحتمل انها مقبض لشيء ما .	عاج	الطول ٣ر١١سم القطر ١ سم
٤٨	قطعتان من العاج كل منها اسطوانية الشكل مثقوبة من الوسط وقد ثقبت بثقب مستطيل الشكل من احد جوانبها .	عاج	ع ٩ر١ سم ق ٥ر١ سم
٤٩	قطعة عاجية صغيرة اسطوانية الشكل	عاج	ع ٣ر١ سم

	الكبيرة المدببة القاعدة .		
٥٤	عدد كبير من الاحجار قرصية غير منتظمة مثقوبة من الوسط يحتمل انها كانت تستعمل كحامل للادوات الفخارية المدببة القاعدة .	حجر	معدل قطرين من الخارج ٢٥ سم قطر الثقب ٩ سم
٥٥	اناء سمج من الحجر يشبه الباطية ويرتكز على قاعدة مستديرة مستوية .	حجر	القطر ١٢ سم ع ٥ر٤ سم ق ق ٩ سم
٥٦	عدد من الطابوق المفخور ملونة من احد جوانبها بالوان مختلفة واشكال هندسية ومن الالوان المستعملة اللون الاسود والاخضر والفستقي والبرتقالي .		٣٢×٣٣ سم ١٠ سم
٥٧	حوض من الحجر مكعب الشكل وجد على ارضية القاعة اليسرى من المحتمل انه كان يستعمل كحوض للغسل او مخزن للماء .	حجر	
٥٨	منشور من الطين المفخور مثمن الوجه عثر عليه مكسورا اربع قطع مرميا على ارضية الجزء الايمن من قاعة الحرس تحت النافذة الصماء يحتوي على حوليات الملك الاشوري سنحاريب .	فخار	الطول ٣٧ سم

٥٩	كسرة من الطين المفخور عليها احد عشر سطرا من الكتابة المسمارية الدقيقة غير الواضحة يحتمل ان تكون جزءاً من منشور كبير او رقيم كبير الحجم .	فخار		
٦٠	رأس رمح من الحديد كامل الشكل .	حديد	الطول٩ر٥سم العرض٥ر١سم	٦٠/١٢
٦١	رأس رمح من الحديد متآكل قليلا .	حديد	الطول٥ر٤سم	٦١/١٢
٦٢	مسمار من الحديد ذا رأس كبير .	حديد	الطول٥ر٥سم	٦٢/١٢
٦٣	رأس سهم من النحاس ذو ثلاثة احرف تستدق كلما اتجهت نحو الرأس ولها حافات حادة تنتهي من الاعلى برقبة السهم المجوفة وهي محل تثبيت الريشة وقد فقدت الرقبة . وكل حرف من احرف السهم ينتهي بشوكة صغيرة متجهة نحو الرقبة وذلك لكي لا يمكن اخراج السهم من الجسم بسهولة .	نحاس	الطول ٣ سم ق الرقبة ٦ ملم	٦٣/١٢
٦٤	رأس سهم من النحاس مفقود الرقبة ذو ثلاثة احرف	نحاس	الطول٣ سم	٦٤/١٢
٦٥	رأس سهم من النحاس كامل ذو ثلاثة احرف مدببة .	نحاس	الطول ٤ سم	٦٥/١٢

٦٦	رأس سهم من النحاس مفقود الرقبة والرأس ذو ثلاثة احرف مدببة .	نحاس	الطول ٣ سم	١٢ / ٦٦
٦٧	ثلاث بندقات نحاسية ذات احجام مختلفة اكبرها بحجم البندقة .	نحاس		١٢ / ٦٧
٦٨	قرص نحاسي مطروق ومثقوب من الوسط يعتقد انه يستعمل كزر للملابس الحربية .	نحاس	القطر ٣ و ٢ سم	١٢ / ٦٨
٦٩	كتلة من النحاس بيضوية الشكل ينتهي احد رأسيها بحلقة نحاسية مثبتة من المحتمل انها كانت تستعمل كشاقول للبناء او عيار وزن .	نحاس	الطول ٣ و ٤ سم القطر ٤ سم	١٢ / ٦٩
٧٠	ابرة نحاسية مكسورة الرأس .	نحاس	الطول ٢ سم	٧٠/١٢
٧١	حلقتان نحاسيتان لايعرف استعمالهما .	نحاس	ق ٥ و ٢ سم	٧٠/١٢

القصة العربية في الادب العربي

الدكتور عمر الطالب

رئيس قسم اللغة العربية بالوكالة

ليست القصة دخيلة على ادبنا العربي انما وجدت من امد بعيد وعرفت في العصر الجاهلي كحرب داحس والغبراء ويوم الفجار. وكانت هذه القصص ممتعة وموضوع اعجاب العرب في أماسيهم وسمرهم ناهيك عن قصص الهوى الكثيرة التي احتلت مجالس الانس ولاقت نصيباً وافراً من الاعجاب. كقصة المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان وما كان بينهما من علاقة.

وعرف العرب قصصاً تتناول بالتفسير الاسطوري الحياة والخلق؛ فحكوا الحكايات عن نشأة العالم وعن آدم ونسله. وعن نشأة اللغات وتعددها. وعن التاريخ العربي كما تخيلوه حتى الاسلام مما نجده في كثير من الكتب مثل كتاب التيجان لوهب بن منبه.

وكان القصاص يقتبس احياناً من الامم الاخرى فيضع هذه القصص المنقولة في قالب عربي صرف يتفق مع ميول العربي وذوقه فضلا عن ان العرب في العصر الجاهلي قد حفظوا قصصاً كثيرة عن الفرس. كانوا يروونها في مجالس انسهم حيث

وردت عدة قصص من هذا القبيل في سيرة بن هشام «١» .

وقد ورث الادب العربي عن العصر الجاهلي كثيراً من ادب الاسطورة وادب القصص الخرافي كما نجده في « كتاب الاكليل » الهمداني وكتاب « التيجان » وكتاب « اخبار اليمن » للجرهمي «٢» ولم يحضر الاسلام سماع الاقاصيص الصادقة بل عمل على تشجيعها لما فيها من التسلية البريئة ولانها كانت عاملا من عوامل الحث على الفضيلة والحض عن الرذيلة .

وقد استعمل القرآن الكريم القصة واعتمد عليها وهو يلجأ الى الاسلوب التصويري في قصصه يصور الحدث ويجسمه ويدفع فيه الحياة . ويرسم المكان ويصوره ويشركه في الحدث .

وهذا يعني ان اسلوب القصة العربية كان يعرف التصوير والتجسيد ويلجاً اليهما وقد لجا القرآن الى الحوار يجريه على لسان شخوص قصصه في جدالهم ونقاشهم وفي اسلوب متنوع مختلف الجمل والفقرات باختلاف المواقف القصصية كما لجا الى اسلوب الحوار في خطابه للمشركين .

---

(١) انظر نجيب سعد (تراثنا الادبي المعاصر) ص ٩١٠ فاروق خورشيد (في الروايه العربيه) ٢٢ – ٢٣ – ٣٠–٣١ ، احمد امين (فجر الاسلام) . محمد مفيد الشوباشي (القصة العربية القديمة مصطفى الشكعة في (فنون الادب) ٦٩ – ٧٥ ، د .شوقي ضيف(الادب العربي المعاصر) ١٨٢ - ١٨٣ د ذكي المحاسني (نظرات في ادبنا المعاصر)٥٧١ محمود تيمور (محاضرات في ادب العرب ماضيه وحاضره ٢٦ جعفر الخليلي (القصة العراقية قديما وحديثا) ١٥ – ١٦ ، عباس خضر (القصة القصيرة في مصر) ١٥ – ١٦ ، احمد ابو سعيد (فن القصص) ٤٣ – ٤٤ د. محمد عيسى هلال(الادب المقارن) جب(تراث الاسلام) ج١ ١٩٤ . مجلة المروة ١٤ (١٩٣٩) ٤٦ – ٥٠ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد (ادب القصص عند العرب) الاداب (٧) ١٩٥٤ .

وتتردد فيه كلمة «قالوا» كما تتردد كلمة «قل» للرد على اقوال المشركين . وهذا يعني ان العرب قد عرفوا «اسلوب الحوار» فيما رووا من قصص وما عرفوا من اساطير وحكايات.
وتبرز الخصائص الفنية الاخرى من القصة القرآنية في عنصر الشخصية وهي متنوعة، منها ماهو من الطيور والحشرات ومنها ماهو من الملائكة ومنها ماهو من الجن ومنها ماهو من الانبياء والمرسلين ومنها ماهو من الرجال والنساء العاديين.
وهناك ايضا عنصر الحادثة الذي يختلف فيه رسم الحادثة من موطن الى آخر باختلاف الموقف واختلاف القصد والغرض.
والقصة القرانية تهدف الى اعراض بعينها ، اغراض دينية في الغالب . ولكن عند تحقيقها لهذه الاهداف تنتهي عند عملية الايحاء الافاضة . والوظيفة التي تؤديها الفنون جميعاً «١» . وفي عهد الخلفاء الراشدين اخذت القصة تتخذ لها وضعاً رسمياً فتكون اشبه بمنصب يتولاه القادر عليه فقد روى ان اول من قص في مسجد رسول الله «تميم الداري» «٢» استاذن عمر في ذلك فاذن له وكان يقص في يوم الجمعة عقب الصلاة وكان «ابن عباس» يجلس ايام الاسبوع للدرس والتعليم . فافرد للقصة يوماً . وفي ايام عثمان اذن لتميم الداري ان يقص يومين في الاسبوع بدلا من يوم كما كان

---

(١) د . محمد احمد خلف الله (الوظيفة الفنية للقصة القرآنية) مجلة القصة ٧ ١٩٦٤

(٢) عن كتاب نجيب محمد (تراثنا الادبي المعاصر) وكتاب فاروق خورشيد (في الرواية العربية) ان بن شهاب اول من قص في مسجد الرسول ولما سئل الحسن قال انها جرت في خلافة عثمان واول من قص تميم الداري .

في عهد عمر ففعل . ودخل علي مسجد البصرة يتعرف ماذا يقول القصاص. فلما جاء الى حلقة «الحسن البصري» اعجب به واجاز له ان يتحدث واقصى عن المسجد من لم يره اهلا للقص على الناس

واما معاوية فيروي المسعودي عنه انه كان يستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من اخبار الامم السالفة «١»

وقد ظهر في الادب العربي القديم لونان من القصص، منثور ولون منظوم . فاما القصص المنثورة فقد بدأت سيراً وحكايات عن سلف العرب من انبياء وملوك وامراء وفرسان وكانت هذه الحكايات والسير في نشأتها الاولى كالجنين لا تستبين له صفات او خصائص ثم برزت هذه السمات شيئاً فشيئاً .

ثم ظهر نوع من القصص المنظوم بينما كان ذلك القصص المنثور ينمو وينسج كيانه من خيوط اخبار الاقدمين التي توارثها الرواة عن الرواة . وعبر الشعر الروائي الحديد عن الاحداث الراهنة فوصف وقائع الحروب التي كانت تدور انذاك كما نرى ذلك في اخبار عبيد بن شريه وتيجان وهب بن منبه وسيرة دغفل الشيباني . ولكن هذه الالوان اختلفت في صورتها عن صورة الشعر القصصي غير العربي فتعاقب فيها النثر والشعر، عوض ان تكون شعراً خالصاً . فأصبحت القصة تحكي الواقعة ثم يعبر اشخاصها عما وقع لهم وعن خواطرهم ومشاعرهم شعراً «٢»

---

(١) محمود تيمور (القصص في الادب العربي) ٤٤ – ٤٥

(٢) محمد مفيد الشوباشي (القصة العربية القديمة) ٢١ – ٢٢ ، د . حسين نصار (الشعر القصصي والادب العربي مجلة الاقلام ١٩٦٦) .

وقد تأثر الادب العراقي الحديث بهذا النمط من القصص الشعري . فزخر شعر الرصافي والكاظمي والزهاوي به كما ظهرت في الخمسينات من هذا القرن قصص شعرية في كتب مستقلة للشاعر بدر شاكر السياب « الاسلحة والاطفال » عام ١٩٥٤ و « المومس الفاضلة » عام ١٩٥٤ . ولعبد السلام ابراهيم ناجي « ثريا » عام ١٩٥٢ ولسعدي يوسف « القرصان » عام ١٩٥٣ ولموسى النقدي « محمود والقمر » عام ١٩٥٨ . كما ظهر في العصر العباسي نوعان من القصص النوع الاول القصص الاخباري الجاد الذي يعتمد في اغلبه على التاريخ والوقائع المشاهدة او المنقولة . والنوع الثاني القصص الفكاهي المسلي . وقد رحبت اللغة العربية بترجمة هذين النوعين من الادب القصصي اليها وكان كتابا كليلة ودمنة والف ليلة وليلة من النوع الفكاهي المسلي الذي يدرك سامعه بعده عن الحقيقة . وكان يطلق على حكايات الف ليلة وليلة « خرافات » كما يقول المسعودي وظهر من الادباء العرب من اقبل على تصنيف هذه القصص الخرافية وتسجيلها . وذكر ابن النديم في الفهرست بابا لكتب الخرافات المعروفة في عهده «١». والقصص المنقولة منها ما نقل عن الاصل في امانة مثل كليلة ودمنة ، ومنها ما لحقه التغير او الاضافة او الحذف او الصقل او التهذيب حتى كاد يصبح غريباً عن اصله مثل الف

---

(١) وقال ان محمد بن عبدوس الجهشياري قد ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته واحضر السامرين واخذ منهم احسن مايعرفونه فاجتمع له في ذلك اربعمائة ليله وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة الف سمر . د . عبد العزيز عبد المجيد (ادب القصص عند العرب) الاداب ٧ ١٩٥٤ بيروت .

ليلة وليلة . اما المصادر التي استمد منها هذا القصص المنقول فأهمها الفارسية «١» والهندية «٢» .

اما القصص الموضوعة الجادة فمعظمها لها اصل تاريخي اشخاصها ابطال حرب او حب حقيقيون وحوادثها الرئيسية التي بنيت عليها حوادث وقعت في التاريخ ولكنها تغيرت بمرور الزمن عندما تناقلتها الالسن بالرواية فكان الراوي يتناول القصة من مصدرها ويرويها للناس على حسب هواه. فكان راويا ومؤلفا في الوقت نفسه ومعظم هذه القصص مجهولة المؤلف . اما التي تحمل اسم مؤلف معين فانتسابها اليه كانتساب بعض الملاحم القديمة لاصحابها فالمؤلف لم يكن سوى جامع لاخبار هذه القصة وروايتها بعد تعديل وتنقيح . وكثيرا ما كانت تنسب هذه القصص لرواة مشهورين امثال الاصمعي «٣» .

ومن اشهر القصص العربي القديم . القصص الغرامي وتعد هذه القصص احد اركان الفن القصصي العربي . وهي بالرغم بما فيها من خلط في التاريخ . ومغالاة في الوصف ونقص في التأليف تحتوي على شي من مقومات القصة الفنية . واهم هذه القصص ثلاث : مجنون ليلى وجميل بثينة . وقيس لبنى . وابطالها مذكورون في التاريخ . ويلاحظ ان هذه القصص

---

(١) كليلة ودمنة ، سندبار ، مساعة يوسناس ، خرافة وترجة ، الدب والثعلب ، روزبه اليتيم ، نمرود ، مردك .

(٢) سندباد الكبير والصغير برداسيب . الهند في قصة هبوط ادم . ملك الهند القتال والسباع . الف ليلة وليلة .

(٣) محمود تيمور . دراسات في القصة والمسرح . ص ٣٥ .

قد اشتقت من ينبوع واحد،هو ينبوع البادية وعالجت موضوعا واحدا هو الحب العذري ، فبطلها دائمابدوي يعيش عيشة الفطرة ويتحلى بصفات طيبة كالكرم والعفة والشهامة.

والقصص العلمية والفلسفية مؤلفوها من العلماء . وقد كتبوها للخاصة من الناس . واشهر هذه القصص قصةحي بن يقظان والانسان والحيوان والصادحوالباغم ورسالة الغفران والمقامات «١» .

والغرض الذي رمى اليه المؤلف من كتابة هذهالقصص عرض فكرته الفلسفية اونظريته العلمية ومن ثم كانتالصياغة القصصية في المرتبة الثانية .

وجميع هذه الكتب الفت بلغة سليمة . وتقف السيرة النبوية كمرحلة بين الشكل القصصي الذي عرضه العرب قبل الاسلام وبين شكلها الذي تطور فيما بعد الى القصص العربي الاسلامي. والذي لاشك فيه ان السيرة قد اثرت في القصة العربية تأثيرا ضخما كبيرا «٢» فلن نجد بطلا في القصة العربية لا تؤيده خطوه غيبية تسدد خطاه وتعينه .

اما القصص الدينية فقد كان موضوعها الاساسي الدين والرسل والانبياء وهذا النـوع من القصص قديـم في الاسلام . ففـي القرآن الكريم حكايات عن الامم الغابرة والشعوب القديمة التي

---

(١) ومثله مؤلفات هشام الكلبي وعيون الاخبار لابن قتيبة والكامل للمبرد والامالي لابي علي القالي . والبخلاء للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه ومروج الذهب للمسعودي والاغاني لابي الفرج الاصفهاني واسماء العرب والعجم لابي عبدالله الجهشياري . فاكهة الخلفاء لابن عربشاه . والمستطرف في كل مستظرف للابشيهي . وجوامع الحكايات للعوفي .

(٢) فاروق خورشيد (في الرواية العربية) ١٩٥ .

سبقت الاسلام وهي تختلف في طولها وقصرها . ومنها كتاب قصص الانبياء للكسائي و «العرائس» للثعالبي وبعض الحكايات الدينية القصيرة مطبوعة بصورة مستقلة .

وتعتمد القصص الحماسية البطولية في هيكلها على حوادث التاريخ: اما نشأة هذه القصص فهي نشأة طبيعية بحتة فان الناس في كل امة يحبون البطولة والحرب ويرددون وقائعها معتزين بما احرزوه من نصر فيها ممجدين ابطالها . وكانت حياة العربي حياة نزاع وحرب متقابلة دائمة الشجار . واخبار بطولته يزخر بها تاريخه ومن ثم اخذ الرواة يروون للناس هذه الحوادث التاريخية ثم يضيفون من عندهم ما ارادوا . واخذت القصص تحاك حول هذه الاخبار شيئاً فشيئاً الى ان انتهت الى الحالة التي عليها . مثل قصة بكر وتغلب ، وعنترة ،والبراق ،وعمر بن شبه ؛ وكسرى انوشروان ؛ وبشر الأسدي .

والى جانب القصص الحادة القصص الشعبية «١» وكانت ملهاة للشعب يسمر بسردها للناس ويقرأها في الكتب ويمثلها في الحلقات لسرد العبر الماضية والاتعاض بها . مثل قصة عنترة وقصة الهلالية وقصة الظاهر بيبرس وذات الهمة وسيف بن ذي يزن وفيروز شاه وعلي الزيبق واحمد اللدنف «٢» . تسلمنا

---

(١) (فما ظهور الادب الشعبي احيانا الا علاقة تصوراو تقص في الادب الرسمي او صرخة احتجاج على حدود الفصحاء) توفيق الحكيم (زهرة العمر) ١٦٠

(٢) (شجع الموحدون نشرالكتب التي تتحدث عن الفروسية او كتب المغامرات والقصص في انحاء المملكة سواء في المغرب او في الاندلس بل لقد سمحوا لهذه الكتب ان تلقى من فوق منابر المساجد) (تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين) ج ٢ ص ٤٥ .

السيرة الشعبية من قصة الى قصة . وكل قصة تتشابك مع الأخرى . تتشابك مع حكايات عن المكر والشجاعة والجن والاحتيال. وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية واصبح هدفها اجتذاب القاري والتأثير عليه بل لا تجد حرجاً في مخالفة التاريخ في اشياء معروفة ومشهورة »(١) .

ومن الدلائل على ان السيرة تبغي التأثير على القاريء وتؤثر الاسلوب القصصي ، استغلالها لعنصر الطبيعة في تهيئته الجو وخلق مجال يؤثر على القاري . فهي تكثر من مواقفها في وصف الطبيعة التي تحيط بالعاشقين . وصفاً ينمي الموقف ويبرزه ويرد فيها الشعر على لسان ابطالها . واستعانة القاص هنا ليس فضولا ولا حليه وانما لجوء الى اقرب الادوات للتعبير عما في النفوس . واستعان الشاعر العربي بالشعر . ليقدم ما نسميه في القصص الحديث بالمونولوج الداخلي ويتبع ، بواسطة الشعر ما يسمى في النقد الحديث بالحركة الداخلية لنفوس الابطال . فالشعر في هذه الحالة يكمل الصورة ويعطيها عمقها ويرسم ظلالها والوانها ويخرج القصة من مجرد كونها سردا جامدا تاريخياً لاحداث اسطورية ذات دلالة معينة لا تتضح الا في النهاية ، الى قصة حية تعيش في وجدان الناس بما لشخصياتها من حياة حقيقية فنية مليئة بالانفعالات والانطباعات عامرة بالمشاعر المختلفة المتباينة المضطربة . وهي تبدأ من الشعر الذي يشابه الاشعار الجاهلية التأليف الى ان تصل الشعر القريب من العامية كما نجد عامية

---

(١) تجعل عمر بن ابي ربيعة شاعر من اهل الشام وتتحدث عن علاقة طية بين عبداقه بن الزبير وبين الخليفة عبد الملك بن مروان . عبد الحميد ابراهيم . محمد (قصص الحب العربية) ٨٥ .

خالصة في سير بني هلال .

ويتطور الامر كذلك في استعمال هذا الشعر حتى نجده في آخر مراحله وقد غدا وسيلة الرواية نفسها فالبطل لا يتكلم في هذه القصص الا شعرا تتخلله بعض الجمل النثرية .

وهذا التدرج اللغوي يمكن اعتباره المؤشر البياني الذي يدل على درجة الانفصال اللغوي ومدى اتساع الهوة بين لغة الكتابة ولغة الناس «١» ويبدو ان هذا النوع من القصص، قصص الفكاهة والخرافة والبطولة . طغى عند العامة على القصص الواقعي الجدي وانتشر القصاص للتسلية والتفكيه في الميادين والشوارع لدرجة خشي معها العلماء والفقهاء ان ينصرف الناس عن العلم وعبادة الله فحاربوا هؤلاء القصاص «٢» . وقد ظهر اثر القصص الشعبي في الرواية العراقية واضحاً جلياً وبنيت بعض الروايات في الادب العراقي الحديث على نفس الاسس التي بنيت عليها القصة الشعبية مثل رواية حمدي علي «شيخ القبيلة» ١٩٥٢ ورواية جعفر الخليلي «في قرى الجن» ١٩٤٨ . و «قلوب قاسية» ١٩٤٧ لعبد الرضا محمد علي و «المجرمون في الارض» ١٩٥٤ لعلي الخياط و «اغرب الاحداث في عالم الاشباح» ١٩٥٠ لاحمد فائق السعيد و «المجرم المتنكر» ١٩٥٠ لنفس الكاتب ايضاً و «ابن الناطور» لفهمي مصطفى و «يتيمة الحي» لمحمود محسن النذيري . كما احس الكتاب بضعفهم امام

---

(١) فاروق خورشيد (في الرواية العربية) ١٧٠

(٢) يحدثنا الطبرى في تاريخه ان السلطان امرسنة ٢٧٩ بالنداء بمدينة السلام ان لايقعد قاص على الطريق ولا في المسجد الجامع . (عبد العزيز عبد المجيد المصدر السابق) .

هجيات اللغة العامية فحرصوا جهدهم على ان يكتبوا صحيحاً فاندفعوا ينتقون الكلمات انتقاء ويتخيرون الاساليب تخيراً وتمادوا في ذلك كثيرا ومن هنا شاعت المحسنات اللفظية وظهرت قواعد جديدة في البلاغة تعتمد على التزويق والبرقشة وتعشقوا الالفاظ المهجورة والاساليب الغريبة . في ذلك الجو نشأت المقامة «١» وكان العصر عصر قلق واضطراب وفتن وحروب فجاءت المقامة صورة صادقة معبرة عن هذا كله . نجد فيها تعقيدا لغوياً يعبر عن التعقيد السائد في المجتمع ونجد تكلفاً في الاكثار من المحسنات البديعية ليعبر عن روح التكلف وعدم الاكتفاء بالمحدود في حياة السكان ونجد السخرية اللاذعة من بين السطور تعبيرا عن الالم الذي ساد طبقات المجتمع من جراء الفوضى التي كانت سائدة عندما تسلط الاتراك وغيرهم على العرب. كما نجد النفاق في حياة بطل المقامة يعبر عن نفاق المجتمع كله حاكمه ومحكومه. ومنذ نشأة المقامة في القرن الرابع الهجري والمقامة عبارة عن لوحة لها اربعة اضلاع لا تستغن عن واحدمنها، احد هذه الاضلاع تمثل الرواية والبطل معاً، والثاني تمثل السجع والمحسنات البديعية، والثالث تمثل معالجة المشاكل الطبقية والاقتصادية والفقهية واللغوية والنحوية والادبية ،والرابع تمثل الموضوع. وهذا الضلع الرابع هو الذي يتغير، فمرة يكون الموضوع الكدية كما في مقامات الهمداني

(١) يرى المستشرق ماسنيون انها المظهر الاول للقصة العربية . ويعتقد مارون عبود ان بعض مقامات البديع قصص بالمعنى الفني اليوم ثم يتلوى في الاعتقاد فيقول ان كثيراً من كتاب اوربا يقصرون عن كثير من هذه المقامات وان موبوسان نفسه لم يكتب مثل المقامة المضيرية . مارون عبود المكشوف العدد ١٧٦ ص ٨ .

والحريري وناصيف اليازجي . ومرةيكون الموضوع خالياً منها كما في مقامات احمد عبد اللطيف البربر وعبد اللهفكري. ومرة يكون الموضوع وعظيـاً بحتاً كما في مقامات الزمخشري وقـد يكون الموضوع علمياً او جدلياً كما في بعض مقامات السيوطي. ويقوم الشكل الفني للمقامة على حادثـة قصيرة يتخللها حوار ، وتقص مغامرة يرويها راوعن بطل ويصف تنقلاته ومشاهـداته واعماله ويحكي كل ذلك في اسلوب جزل انيق مسجوع .

والراوي والبطل يتكرران في كل مقامة وهما الرابط الوحيد او الوحدة الواحدة بين المقامات كلها. والبطل في معظم المقامات محتال يمتاز بسرعة بديهيته وسعة علمه .غير مستقر في مكان واحد وعليه تقوم حوادث المقامة . والبطل في مقامات البديع والحريري يتخذ اشكالا ويظهر في احوال مختلفة. وقد يكون ناقدا اجتماعيا او سياسيا او اديبا ولغويا ولكنه دائما محتال متسول يحصل على المال بالخداع والحيلة ليوفر لنفسه المتعة واللذة. وهو دائماديب بليغ حاضر البديهية يرتجل الكلام المطابق لمقتضى الحال منثورا ومنظوما ويستشهد بالمأثور من ايات واحاديث وحكم وامثال واشعار

ويعطينا كل من ابي الفتح الاسكندري بطل البديع وابي زيد السروجي بطل الحريري نموذجا للادب البائس في ذلك العصر الذي يحتال على كسب الرزق بالادب والشعر وبغيرهما فهويرى ان الزمان قد حرمه واعطى غيره ممن لايستحقون فلا بأس عليه انيحتال ويلبس لكل حال لبوسها ويدور مع الزمان . وتشتمل المقامات على وصف للعادات واحوال

الناس في عصره . وتوجد الحركة في المقامة كما يوجد الحوار الذي يتم بينهما في صورة من الصور فيدفع بالحدث الى الامام .
ويمكن ان نلاحظ في المقامة ايضا التصميم في الشكل والفكرة وخاصة عند الحريري . كما نعثر على العقدة والاسلوب والمفاجأة والعرض القائم على التشوق مع ارتباط وثيق بالحياة الاجتماعية . كل ذلك يقربها من القصة في شكل من اشكالها
وقد تتبعنا المقامة عند بديع الزمان فوجدناها احدى عشرة مقامة : الاسدية والاصفهانية والبغدادية والموصلية والمضيرية والارمنية والحلوانية والحميرية والخمرية والمطلبية والبشرية والقريضية في المقامة الاسدية يتحدث عن موضوع السرقة التي يحترفها بعض فتيان الصحراء ، ويشاركها في الموضوع المقامة الارمنية. والفكرة في هاتين المقامتين لم تأت اعتباطا وانما جاءت بناء على تجربة مربها بديع الزمان ومربها معاصروه . فلصوص الصحراء كانوا منتشرين . ويتحدث في المقامة البغدادية عن الريفي الذي يسافر الى الحضر ويقع فريسة لاحتيال عيسى بن هشام الذي يقلد ابا الفتح الاسكندري .
وشبيه لهما في الظرف المقامة المضيرية وان قالب الجد الذي صيغت فيه هذه المقامة الضاحكة ، وعنصر الحركة المتطورة الى الامام النابعة من الحوار الدرامي قد وهبالهذه المقامة القدرة على اضحاك القارى. ويتوفر عنصر التسلية في المقامة الخمرية كذلك وقد وضحت قيمة الحوار في هذه المقامات الثلاث ، وفي الاخيرة برزت شخصية ابي الفتح الاسكندري ذات الوجهين من ثنايا حديثة ، وشخصية التاجرة

التي تروج لبضاعتها والملاحظ في شخصيات الهمداني انها تكاد تكون متمركزة في شخصيتين ليس غير شخصية الراوي وشخصية البطل.

وهناك شخصيات ثانوية تلعب ادوارا ثانوية. ولم يلتزم منهجاً فنياً لتصوير نموذجه وتطويره. فهو يبدأ مقاماته بالمقامة القريضية ويبدو فيها ابو الفتح هرماً متغضن الوجه لبعد الشباب. ثم نراه بعد ذلك شاباً وكهلا في مغامرات ليس فيها نوع من التطوير الذي يدل على ضرب من النضج الفني على نحو ما هو موجود عند الحريري. كما ظهرت العقدة في المقامات البديعية ولكن بشكل غير واضح فالمشاكل المعروضة فيها لم يبذل جهدا في حبكها ومن السهل على القاريء ان يحيط علما بنهايتها في البداية.

اما الحريري فقد ظهرت مقاماته في القرن السادس الهجري وقد اغرق اسلوب مقاماته في الزخرفة والبهرجة والسحر والشعوذة بالقياس الى اسلوب الهمداني. وهذا راجع الى اختلاف بين عصر وعصر ففي القرن السادس الذي عاش فيه الحريري تعقدت الحياة الاجتماعية، كما ان الالفاظ التي استخدمت في المقامات التي ليست الا صورة للمجتمع الذي سادت فيه الشعوذة الاجتماعية والركود الاقتصادي وحوادث القتل والتدمير فتعسر الحصول على الرزق. ولم تكن الزراعة والتجارة والصناعة وسائل مفيدة للحصول على لقمة العيش فلجأ بعض الناس الى الكدية. وظهر الساسانيون الذين شرعوا اجنحة الاحتيال للحصول على الرزق من كل مكان يحطون فيه. وواضح ان ابازيد السروجي يحرص على مواجهة واقعة بعقل نفعي، وتفكير عملي واستئثار المنتهز الذي يرى كل شيء من

خلال ذاته فلا مثالية لديه ولا امل ومن ثنايا سلوكه نرى موقفه من عصره ومجتمعه . على انه لا يتخذ ادبه طريقاً للملق لـدى الكبراء بحيث يجعل مثالبهم فضائل كي يستجديهم تزييف بواطنهم وحقائقهم على نحو ما كان يفعل المادحون من معاصريه . بل آثر ان يعيش واقعه وقد استهتر به العصر فاستهتر هـو بالعصر . وكلاهما مدين للاخر . وعليه ان يعاني ضائقـة مقلوبة وبعـد نفسه اداة قصاص وعقاب وانتقام لذاته من اوشاب الناس . وطالما ورد الدين على لسانه وهو يخلطه بما يقترف من آثام فلا يرتاب المرء في مجونه واستخافة حيث يراه يطمح في عفو الله وهو يبرر شنيع فعلته . ويستخدم في وعظه قصر العمر وسرعة فوات الزمن سبباً للحث على التقوى وطالما تكرر ذلك في مقاماته امام الناس على حين يتخذ نفس القياس لتبرير سلوكه امام نفسه في انتهاز الملذات وابتدار المسرات .

فقضية هروب الزمن لديه ذات حدين يشغل الناس بها ويستمتع ويبدو بها متديناً ويحتج بها ليلهو ويستهتر . ونخـرج من هـذا الى القول بان التطور القصصي في مقامات الحريري ياخذ شكلا تقدمياً بالنسبة لمقامات الهمداني لان العقدة في مقامات الهمداني معدومة وهدفه من مقاماته اهداف وعظية تهذيبية تعليمية دينية تدور حـول موضوع الكدية . فالجانب الاخلاقي عنده يأخذ الجانب الاكبر في موضوعات مقاماته التي صاغها هذه الصياغة الفنية للكشف عن جوانب الحياة الاجتماعية السائدة في عصره والذي يستقـري المقامات او يفحصها على مدى تاريخها الطويـل منذ البديع عام ٣٩٨ حتى السيوطي عام ٩١١ يجد انها كانت تتحـول عند كل كاتب

ومع مرور الزمن الى شكل تتوفر في بعضه المادة القصصية (١٩)، ويبعد في اكثره كل البعد عن هذه المادة وعن مرونة القصة فتفقد المقامة حركتها وشخوصها معاً . وهكذا اصبحت المقامة عند

---

(١٩) [illegible] الباحثون المعاصرون [illegible] .

١ – يقول جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ص٣١٩) انها حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالي تنتهي بعبرة او موعظة او نكتة والمراد بها في الاكثر التمرس بالانشاء وتضمينه الامثال والحكم .

٢ – يقول احمد حسن الزيات ([illegible]) ص ٤٠٦ انها حكاية قصيرة انيقة الاسلوب تشتمل عظة [illegible] .

٣ – يقول زكي مبارك (النثر الفني في القرن [illegible] الهجري ج١ ص١٩٧ – ١٩٨) المقامة هي القصص القصيرة التي [illegible] او حاطرة وجدانية او لمحة من لمحات [illegible] .

٤ – ويقول احمد امين ([illegible] ج١ ص١٤٢) انها حكايات قصيرة تدور كل منها حول حيلة يحتالها رجل [illegible] في اسلوب ادبي) .

٥ – ويقول شوقي ضيف ([illegible] ص٦) انها نوع من القصص القصيرة تخيل فيها شخصاً من المكدين [illegible] بفصاحته وبيانه .

٦ – وفي The Modern Arab short story انها تدور حول مغامرات شخصية معروفة ومميزة بطرفها وانها تكوين ادبي جديد ونموذج القصة القصيرة تحتوي على مغامرات المكدين

٧ – ويقول توفيق الحكيم (فن الادب ص ٢٢) انها اعمال قصصية قصد بها سرد حكايـــة وتصوير اشخاص .

٨ – يقول آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٤٨) انها تمهيد للكتابـــة الروائية على صورة [illegible] د. محمد [illegible] .

٩ – ويقول د. مصطفى الشكعة ([illegible] ص ٢٧٦) ان [illegible] في مقاماته اول محاولة [illegible] في العربية [illegible] ويسمي بديع الزمان بانه رائد القصة العربية

١٠ – انور الجندي (معالم الادب العربي المعاصر) ص ٧٠ . كان اول مراحل الاتجاه نحو القصة العربية الحديثة هو ظهور فن المقامات في الادب العربي المعاصر .

الزمخشري ٥٣٨ اسلوبا للمناجاة الدينية ووعظ النفس وحثها على الصلاح والتقوى . وتحولت عند ابن الجزري ٧٠١ الى خطب ونكت فقهية واصول نحويه واتجهت عند ابن الوردي ٧٤٩ الى حكم ومواعظ تدل شخوصها على وجود الخالق واصبحت عند السيوطي ٩١١ رسائل مسجوعة تمتلي بالحديث والمعلومات. كما ظهرت مقامات العشاق . لمحمد بن سليمان التلمساني ٦٨٨ والمقامات الزمنية لابن الطيفل ٧٠١ والمقامات الشهابية لمحمد بن الحسن سباع الجذامي الدمشقي ٧٢٢ ومقامات الجوهري لابن الثناء محمود بن سليمان الجوهري الحنبلي ٧٢٥ « ٢٠ »

وبذلك فقد الشكل القصصي اهميته على مر العصور ولم يبق من المقامة سوى هدفها التعليمي والوعظي الذي كان ينشر احياناً على هيكل غير متماسك من الحكاية . ويتوسل باسلوب مزركش مليء بالزينة اللفظية . ولم تنقطع المقامات ولا انقطعت القصص . «٢١» ولم يستغن العرب بالامثال عن القصص والاكتفاء بحكمها او نتائجها ودواما كما دامت المقامات لتأكيد الادب العربي وتقويته فتفننوا فيها كثيرا مثل مقامة السيد خليل البصير ٦٩١ «٢٢» ومقامة السيد فتح الله

---

(٢٠) عباس العزاوي (تاريخ الادب في العراق) ص ٢٨٩ .

(٢١) دعا السلطان اويس الجلايري الى تحرير قصص تلبة مقام بالمهمة خواجو الكرماني وعبيد الزكاني وغيرهما المصدر السابق ص ٢٨٩

(٢٢) سعيد الديوهجي (مقامة السيد خليل البصير)

القادري المتوفي عام ١٢٠٤ «٢٣» وكلاهما تصف حصار الملك نادر شاه «للموصل عام ١١٥٦ هـ» واستبسال اهل المدينة وتضحيتهم في سبيل مدينتهم وفكهم للحصار وخضوع نادر شاه واسحابه وطلبه الصلح من والي المدينة «الحاج حسين باشا الجليلي» «٢٤» ومقامة الشاعر الموصلي حسن عبد الباقي التي تدور حول الموضوع نفسة وتصف المجاعة التي حلت بمدينة الموصل والتي ذهب ضحيتها عشرات الالوف من السكان ومقامة السيد خليل بكتاش «٢٥» الذي يصف ماوصل اليه العلم في مدينة الموصل» من
تدهور على يد المشعوذين من العلماء «ونكت على من لهم في ميادين الفضل سوابق ويزدري بكل شيخ له في الادب اياد ابقت السوابق لواحق فيا ايها المتقعر في خزعبلاته والمتشمر في سفاف خرافاته ما هذه السلاطة الشنعاء وما هذه المخاصمة التي هي ادوى من الداء . . . . . » . ولم تستطع المقامة ولا الالوان القصصية والحكائية القديمة ان تشكل فناً قصصياً متميزاً له معالم واضحة . وظلت على كثافة عادتها وتشتت المحاولات فيها مفتقرة الى اليد الصناع التي تخلق منها ذلك الفن . وقد تحجرت المقامة على مر العصور . اما باقي العناصر القصصية فلم يهتم بها الخاصة ولا الادب العربي الفصيح اهتماما كبيرا

---

(٢٣) يوسين بن خير الله الخطيب العمري (منية الادباء) تحقيق سعيد الجليلي .
(٢٤) مخطوطة الدكتور صديق الجليلي .
(٢٥) مخطوطة في مكتبة سعيد الديوه جي .

وترك امرها وخاصة الانماط الشعبية منها ـ وهي التي تحمل بخصب المادة القصصية ـ الى عامة الشعب وكانت النتيجة الطبيعية لذلك كله ان القصة في التراث العربي القديم وعلى تتابع عصوره اصبحت غير واضحة المعالم ولكن تأثرها في الفن القصصي العربي واضح بين «٢٦» وان كان الاثر الغربي اكثر وضوحا من ناحية البناء الروائي والشكل . فقد تأثر سليمان فيضي في روايته « الايقاظية » ١٩١٩ بفن المقامة كما اثرت السير الشعبية في عدد من الروائيين العراقيين واول ما نلاحظه على اسلوب القصة العربية القديمة انه لم يعن بتصوير اشخاصها ووقائعها من الخارج كما عني بتصويرها من الداخل فنحن نعرف من قراءة قصة كليب مثلا شيئاً كثيرا من صفات اشخاصها واخلاقهم ومعتقداتهم . ولكننا لم نعرف الا النزر اليسير عن هيئاتهم وصفاتهم الجسدية وملابسهم . وقد ادرك مؤلفو القصة الحديثة ان تصوير ظواهر القصة مهم كتصوير بواطنها لان ذلك يزيدنا تأثرا بها واندماجا فيها. كما ان بناءها في حاجة ماسة الى الحبك والتشذيب . وكما كان في حاجة الى الاسهاب والاستفاضة فهو بحاجة الى التخلص من الزوائد واستكمال نواحي النقص فكم من وقائع اضافية لاتمت الى موضوع القصة بصلة وثيقة كانت جديرة بان تحذف. وكم احتاج الموضوع الاصلي الى شرح وتحليل وتعريف لتكتمل صورته كما ان الحوار

---

(٢٦) تقول جوستاف لوبون (ان العرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ويشهد التاريخ لـ[illegible] الة المعران التي الفها العربي انها تتقدم في الزمن ثلاثة قرون على قصة الملهاة .

الذي يستكمل به موضوع القصة صورته كما ان تستكمل الشخوص تجسيدها لم يحقق في هذا الصدد الشيء الكثير في القصة العربية القديمة ولم تخل القصة العربية من جمال الاسلوب وفكاهة البيان والمفارقات المستظرفة والفكاهة المرحة التي تتبع بها جو المداعبة مما يكفل السلوه والمؤانسة والامتاع . كما زخرت بتصوير مواقف الحياة الاجتماعية ومظاهرها وما طبعت عليه النفوس من اخلاق وشمائل وتعقبت الوان الشذوذ في احداث الحياة على تعاقب العصور في انماط الناس على تباين الاجناس .مع قدرتها على استنباط الحقائق واكتناه االسرائر .
ففي هذه القصص ذخيرة نفسية من تجربة الدهر وحكمة الزمن وان كل قصة شأنها في غالب الامر ان تعمل على بسط عبرة وتأييد فكرة او اعلاء مثل كل ذلك باسلوب جزل اللفظ متلاحم النسج جزل التعبير مستفيض الوصف والتصوير مع قدرة على التمثيل والتصور والذهاب بعيدا في ماربها وخلق عوالم من الخيال والخوارق لعالم الجن والسحرة والكنوز وبساط الريح .
وعندما جاء القرن التاسع عشر وظهرت فكرة بعث التراث تحت تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية والقومية وجد الكتاب ان شكل المقامة يتلاءم وبعض حاجاتهم الادبية وقد نظروا اليها النظرة البيانية ولم يلتفتوا الى ما فيها جانبها من عنصر قصصي .
وكانت محاولات تراوحت بين الفشل والتقليد المشوه مثل مقامات احمد البربر ١٨١١ ونيقولا يوسف ١٨٢٨ وابراهيم الاحدب عام ١٨٩١ من الاحاجي والالغاز والمعميات وقلدوا

فيها اكثر مقامات الحريري . ولعل انضج هذه المحاولات واشهرها مقامات نصيف اليازجي عام « ١٨٧١ » وفارس الشدياق عام « ١٨٨٧ » في بلاد الشام : وابراهيم المويلحي « ١٨٥٨ ـ ١٩٣٠ » في حديث عيسى بن هشام وظهرت في العراق مقامة السيد « خليل البصير » عام ١٧٨١ ومقامة السيد فتح الله القادري المتوفى عام ١٧٨٩ وهما يصفان حصار الملك نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣م واستبسال اهل المدينة وتضحيتهم في سبيل مدينتهم . وخضوع نادرشاه وطلب الصلح من والي المدينة الحاج حسين باشا الجليلي .

ومن هذه المقامات مقامة الشاعر « حسن عبد الباقي عام ١٨٠٠ التي تدور حول الموضوع نفسه وتصف المجاعة التي حلت بمدينة الموصل والتي ذهب ضحيتها عشرات الالوف من السكان ومنها كذلك مقامة السيد « خليل بكتاش » عام ١٨٢٠م التي تصور ما وصل اليه العلم من تدهور في مدينة الموصل على ايدي المشعوذين من مدعي العلم ، ونكت على من لهم في ميادين الفضل سوابق ويزدري بكل شيخ له في الادب اياد ابقت السوابق لواحق . . .

فيا ايها المتقصر في خزعبلاته والمتشمر في سفاف خرافاته ما هذه السلاطة الشنعاء وما هذه المخاصمة التي هي ادوى من الداء .

ثم كتب محمود ابو الثناء الالوسي « ١٨٠٢ ـ ١٨٥٤ » بعد ذلك مقاماته الاربع اولها رسالة الى ابنائه . اما الثلاث الباقيات فقد صور فيها حياته ودراسته وشيوخه وما لاقاه من ظلم الولاة

ونفاق الناس . وقد الحق بها مقامة خامسة سماها « سجع القمرية في ربع العمرية » تناول فيها مجتمعا صوفيا يسمى « المجتمع البكتاشي » وافرغ موضوع هذه القصة في قالب روائي وجعل نفسه من ابطالها ليقرب الموضوع من الواقع ووصف وسائل هذه الجماعة في اجتذاب الشباب ووصف ما رآه عندهم من وسائل الأغراء وكأنه انغمس فعلا في لذائذهم . الا انه نجا منهم باعجوبة اذ تغلب فيها على اهوائه . وابدى فيها اوضاع رجال هذه الطريقة ممثلة في واحد منهم هو شيخ البكتاشية « خليل دده » وبين كيف حاول هذا الشيخ اصطياده بتقديم المغريات له فوقع في الفخ وانحرف ثم ثاب الى رشده فاستقل بنفسه .

نجد في هذه المقامة نفحات من الرواية وانطلاقا بسيطا من قيود المقامة . بالرغم من اسلوبها المسجوع فانها لا تخلو من طرافة تجعل القاريء يواصل قراءتها يفتتحها بالبسملة ثم يقول :

خليلي ان الحب ما تعرفانه فلا تنكرا ان الحنين من الوجد

ويخاطب خليله قائلا « وقد لزمت الاقامة في المدرسة العمرية الواقعة في الجانب الغربي من بغداد وشرقي جامع القمرية بين طلبة اخلاقهم ارق من دمعة الصبا بل الطف من وابل او ام الزهر غب الحدب . ما فيهم الا من جعل له لثم الايدي لثاما واتخذني دون من هو في السن امامي اماما » .

ثم يطرق بابه رسول يفيض في الحديث عن الهوى والمدام وينشده الشعر العذب . ويتفق معه على ان يلما ببعض الاصدقاء والاحباب في بستان سليمان باشا الكبير « فلما رأوني قالوا حياك

الله وبياك واسعدنا بلقياك ومتعنا برؤية خيالك . ثم نادى احدهم بصوت مديد اهل القصر ابشروا بالصما فهذا بيت القصيد. فجاؤوا يهرعون وجعلوا من حلقهم يستاون ومس كل حدب ينسلون والشيخ امامهم كالكرة يتدحرج ونشر شوقه القديم الى يتأرج » .ثم يعود الى مدرسته وطلبته ويلقي عليهم الدروس ويحمد الله على انهم لم يعرفوا سر انتشائه وتورد وجنتيه من الخمرة التي شربها. ويعود ثانية في صحبة غلام الى ذلك البستان الوارف ويبدأ مطارحته الغرام «فلما غسلنا الايدي من اثر الطعام هب كل من الحاضرين اثر ذلك للمنام وقمت انا ووسدت الغلام بيميني وضممته الى صدري لاقيه البرد ويقيني انه «تيني» فنمنا وما علينا لحاف الا الصيانة والعفاف ولم يوقظنا الا حسر الهجير بيلواه وفاتتنا صلوة الفجر وحسبنا الله ... فدنا الى ووضع شفته على شفتي فجعلت ارشف من شفتيك الشفاه ما هو لدى اسكندر القلب اهم من ماء الحيواة حتى ارتفعت ومن ذياك البارد العذب» ..

ولكنه سرعان ما يبرم بهذه الحياة فيطلقها طلاقا بائنا ويعود الى سالف سيرته بعد ان مات الشيخ والغلام فجأة .

وخرج الآلوسي عن نسيج المقامة المعروف فلا نجد في مقامته روايا ولم يستهدف من كتابتها غرضا من الاغراض التي تكتب من اجله المقامات في الادب العربي وانما استهدف غاية اوسع واكثر صلة بالحياة من التعليم او اظهار المهارة اللغوية وقد وفق ابو الثناء في هذه المقامة في عرض مضمون يستوفي بعض

شروط القصة فقد تابع انحدار الشخصية الرئيسية .
في المقامة من زهده وتقواه حتى انسياقه مع المجون الذي نجح الشيخ في اغرائه به وقد صور مشاعر صاحب هذه الشخصية تصويراً صادقاً ينبض بالحرارة . وكان رد الفعل النفسي لموت الشيخ ثم الغلام الذي تعلق بحبه البطل طبيعياً منسجماً مع نفسية البطل التي صورها كما ينسجم حب الغلام مع ما كان شائعاً في ذلك العصر لانفصال الرجل عن المرأة بحجاب سميك من التقاليد .

وقد استطاع الكاتب من خلال عرضه للحدث ان يبين الكثير من الفساد الذي كان يعم المجتمع العراقي .

ومن المجافاة للواقع ان نجد في محاولة ابي الثناء ادراكاً واعيا لانشاء قصة ذات لون محلي - رغم ان حوادثها بغدادية صرفة وذات لون محلي - وهو امر يصعب ان يلجأ اليه كاتب مغرق في القديم والتقليد في عصر مثل عصر ابي الثناء . لان الوعي يتأتى من سعي نحو الشيء الذي يزمع الاديب انشاءه وهو امر لم يخطر له على بال لانه لم يعرف هذا اللون من الفن فقد عاش في بيئة ضيقة منعزلة وهو بحكم ثقافته التي نشأ عليها كان اقرب الى الالوان الادبية القديمة فاسرف في استعمال السجع والمجاز والاستعارات والتشبيهات والاستشهاد بالشعر وتكلف الحوادث .

وقد عد بعض الباحثين الرواية الايقاظية لسليمان فيضي والتي ظهرت عام ١٩١٩ من باب المقامة وان كنا نرى انها اقرب الى الفن القصصي منها الى المقامة وانها اول

عمل قصصي حديث ظهر في العراق. ولكننا نجدها قد تأثرت بالمقامة من حيث الاسلوب. وعناية فيضي بالسجع واختيار اللفظ وقصر الجمل وموسيقاها ولكن اسلوبه يختلف مع ذلك عن اسلوب المقاومة في كونه لا يلجأ الى التقعر ولا يختار الغريب من الالفاظ .

وقد ارتبطت الرواية الايقاظية بالمجتمع الذي تدور فيه وهي في ارتباطها بمجتمعنا تكاد تتفق مع المقامة التي كانت تعني بوصف الكثير من وجوه الحياة الاجتماعية في عصرها على نحو ما نرى في المقامة البغدادية لبديع الزمان . والتي تصور الحياة في بغداد والمقامة النيسابورية التي تقدم صورة دقيقة لفساد القضاء في عصره .

وتشبه شخصية «يقظان» شخوص المقامات . فهي شخصية وهمية تلازم «باقل» الشخصية الرئيسية دائماً وتقف الى جانبه ولا تحس الشخوص الاخرى بها ودأبها الانتقاد والتعليق على حديث الشخوص ثم تختفي نهائيا من الرواية بعد ان يتيقظ «باقل» ويتلقى العلم في المدرسة .

أبو بكر الزبيدي

٣١٦ – ٣٧٩ هـ

الدكتور أمين علي السيد

بين يدي البحث :ـ

لم يتجاسر اشد الناس عداوة للعرب والمسلمين . على ان ينكر ماكان لهم من فضل في اخراج العالم كله من ظلمات الجهل الى نور المعرفة والعلم . ولقد ظلت لغة العرب وطابع العرب وكثير من شمائلهم ملازمة للحياة في بلاد الاندلس . في شتى ميادينها طيلة حكمهم لها وبعد جلائهم عنها دهرا طويلا وفي القرون الاولى من الفتح نشط الاندلسيون من عقالهم واكبوا على العلم يردون مناهله ويستزيدون منها . وسحرتهم اللغة العربية فاتخذوها لغة لهم . وقد ذكر المؤرخون ان منجيش الفاتح كان خلوا من النساء . ولذلك كان لابد لرجاله من التسري والتزوج والامتهان من بين المغلوبين . ومن هنا كانت لغة التخاطب التي يمكن تصورها . وبخاصة في الجيل الاول من ابناء اولئك النساء الاندلسيات . ولكن اللغة الفصحى كانت لغة الكتابه والخطابة والتعليم . وقد دفعهم الحرص على سلامتها الى ان ينبري بعض علمائهم

يضعون كتبا في لحن العامة . ويصلحون مايشيع من الاخطاء
وممن الف في هذا الفن صاحبنا ابو بكر الزبيدي ـ رحمه الله ـ .
وقد خلف الفتح الاسلامي في هذه البلاد اسفارا علمية
يعجز الاحصاء عن عدها وبيان قدرها . ولكن جل هذا
الاسفار قد مضى مع احداث الزمن . ولم يبقى منه الا الذكرى
التي تثير اعجاب الباحث . كما تثير شعور الالم الممض . الذي
قد يمتزج بشعاع من امل في الظفر بشيء منها .
وكان علماء المشرق وعلومهم مثلا اعلى عند الاندلسيين
فكانوا اذا امتدحوا واحدا منهم لنبوغه شبهوه بمن يناظره
من علماء المشرق. فقد قال صاحب الذخيرة في وصف
ابي مروان عبد الملك بن سراج :ـ
«محى علم اللسان بجزيرة الاندلس . . . . ولم ير مثله
قبله . ولا يرى بعده والله اعلم...وجعله الحجارى اصمعي
الاندلس» «١»
ونقلوا عن ابن الفرضي في ترجمة محمد بن يحيى المعروف بالرياحي
قوله «اصله من جيان. وكان علمه الغالب عليه علم العربيه .
وكان فيها اماما كبيراً. لا يقصر عن اكابر اصحاب المبرد» ٢
وكذلك قالوا عن ابي علم الشلوبين :ـ
«انه مايتاصر عن الشيخ ابي علي الفارسي» «٣»
وقد شد علماء الاندلس رحالهم في طلب العلم . واخذو

«١» المغرب ٢ - ١١٦
«٢» جذوة المقتبس ٣٤٦ . ٣٤٧
«٣» وفيات الاعيان ٣ : ١٤٣

روايه ودراية ويكفي ان يتامل القاريء مارواه المقري في نفح الطيب عن رحلاتهم التي كن من ثمارها نقل الحديث والشعر واللغة والنحو . كما كن منها لقاء الاعلام كالمازني والرياشي والسجستاني والزيادي وابي جعفر الدنيوري وابي جعفر بن النحاس وعلان بن الحسن وابن ولاد الاعرابي والجاحظ وغيرهم .

وقد قامت دراسة النحو في الاندلس بسبب «اتحاد المسلمين الجدد لغة العرب لسانا لهم .» كما يقول يوهان فك «١» ثم بسبب ماكان من صلات ثقافية وثيقة بين الاندلسيين وبين المشارقة . الى جانب تطلع هؤلاء الى اللحاق بركب العلم المشرقي الزاخر وكان من هذا ماحدثنا به المقري عن ابن سعيد من قوله «٢»

«والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة . حتى انهم في هذا العصر فيه كاصحاب عصر الخليل وسيبويه . لا يزداد مع الزمان هرم الزمان الا جده وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقة . وكل عالم في اي علم لايكون متمكنا من علم النحو - بحيث لاتخفى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز . ولا سالم من الازدراء»

وممن نفع اهل الاندلس بعلمه ابو علم القالي . الذي عرف الزبيدي مكانته فلزمه واخذ عنه - كما سياتي - ولكن التاريخ يحدثنا ان التلميذ قد نال بعلمه دنيا عريضة نفعت ابناءه

«٢» العربية ١١

«٢» تاريخ العلماء ١ - ٢٠٦

من بعده على حين نرى الاستاذ اباعلي القالي . قد ذاق مرارة الفقر في مهجره في الاندلس . ولتقرأ بتامل ماروراه السيوطي في كتاب المزهر اذ يقول «١» :–

«كان لابي علي القالي نسخة من الجمهرة بخط مولفها . وكان قد اعطى فيها ثلاثمائة مثقال فابى . فاشتدت به الحاجة فباعها باربعين مثقالا . وكتب عليها هذه الابيات :–

انست بها عشرين عاما وبعتها
وقد طال وجدي بعدها وحنيني

وماكان ظني انني سابيعها
ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لعجز وافتقار وصبية
صغار عليهم تستهل شئوني

فقلت ولم املك سوابق عبرة
مقالة مكوى الفواد حزين

وقد تخرج الحاجات يام مالك
كرائم من رب بهن ضنين

فارسلها الذي اشتراها . وارسل معها اربعين دينارا اخرى رحمهم الله جميعاً . فاين كان الزبيدي حين باع استاذه كتبه سدا لحاجة ابنائه . بل اين كان الخليفة الذي استقدم ابا علي واحتفل به ...

لقد قال شيخهم محارب بن سعيد فيماروى ابن الفرضي

«١» ج ١ : ٩٥

عنه ... «ان للعلم ذماما كذمام النسب «١» فاين كان هولاء المنتفعون بعلم القالي حين الم به هذه الضائقة .ربما كان جواب هذه الاسئلة . ماعرف عن كثير من العلماء بالامساك والبخل . وهنا كان ابو بكر الزبيدي . وكانت اثاره العلمية الخالدة .

الزبيـــــــدي

عصره :-

ولد الزبيدي في منتصف العقد الثاني من القرن الرابع الهجري الذي بدء بحكم اول امير لقب نفسه امير المؤمنين .لانه رأى ماعليه خلفاء العباسيين من الضعف وقد حكم الاندلس من سنة ثلاثمائة الى سنة ثلاثمائة وخمسين هجريه . ذلكم هو الخليفة الثامن عبد الرحمن الناصر «٢»

ثم اصاب الاندلس من بعده مااصاب الدولة العباسية . فانقسمت الى دويلات . واصبح الحكام يعرفون بملوك الطوائف واتخذ كل منهم لنفسه لقباً . حتى هاجم ابن حزم نظام الحكم متمثلا هذين البيتين :-

مما يزهدني في ارض اندلس
القاب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكه في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

«١

«٢ نفح الطيب ١/ ٢٠٩ بضرت .

فاضطهده المعتضد واحرق كتبه . نكاية به . واستجابه للوشاية . ولكن ذلك لم يفل من عزيمته . ولم يضعف من قوة ارادته . فيصمد امام هذا ويقول :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان انزل ويسكن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بداة
فكم دون ما تبتغون لله من ستر «١»

وقد كان الحكم المستنصر الذي ولي الحكم بعد وفاة الناصر سنة ثلاثمائة وخمسين – كما يقول ابن خلدون «٢» محبا للعلوم . مكرما لاهلها . جماعة للكتب . جمع في انواعها مالم يجمعه احد من الملوك قبله . قال ابن حزم : اخبرني اخبرني بكية الخصي – وكان على خزانة العلوم والكتب بدار مروان – ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعون فهرسة . في كل فهرسة عشرون ورقة . ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لاغير . فاقام للعلم والعلماء سلطاناً تفقت فيه بضائعه من كل قطر ووفد عليه ابو علي القالي

«١» ابن حزم صورة اندلسية ٢١١ ، ٢١٢ بتصرف
«٢» العبر ٤ ـ ١٤٦
وفتح الطيب ٤ ـ ٦٢

صاحب كتاب الامالي من بغداد . فاكرم مثواه . وحسنت منزلته عنده واورث اهل الاندلس علمه . واختص بالحكم المستنصر . واستفاد علمه . وكان يبعث في الكتب الى الاقطار رحالا من التجار . ويسرب اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه . واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده . ثم يحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عن مصير هذه النفائس فيذكر ان اكثرها قد بيع في حصار البربر ونهب الباقي عند دخولهم قرطبة .
وقد عاصر الزبيدي هذا وكان له القدح المعلي في النشاط العلمي .

نشأته :—

ذكر الحميدي في كتابه ترجمة هذا نصها : الحسن بن عبدالله بن مذحج .... الزبيدي .
سمع بالاندلس من محمد بن عبدالله بن يحيى الليثي ومن غيره . ورحل وسمع . وكانت وفاته بالاندلس قريبا من سنة عشرين وثلاثمائة . وقد سمعت من يقول : انه والد ابي بكر محمد بن الحسن النحوي مؤلف كتاب الواضح . ويشبه ان يكون ذلك والله اعلم «١» واذا صح

«١» جذوة المقتبس : ١٨٠

هذا فان صاحبنا قد نسب الى اب عالم . وان كان عمره لم يصل حين وفاة ابيه الى الخامسة . لان الابن علي مايروى ابن خلكان قد عاش ثلاثا وستين سنة «١» وتوفي يوم الخميس مستهل جمادي الاخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة باشبيلية ودفن ذلك اليوم بعد عصره . وصلى عليه ابنه احمد «٢» وعلى هذا فقد سبق الاب ابنه الى الدار الاخرة بتسع وخمسين سنة وكذلك قال الحميدي في ترجمة ابن القوطية : سمع ابن القوطية باشبيلية من محمد بن عبدالله بن القودق وحسن بن عبدالله الزبيدي . وسعيد بن جابر وغيرهم «٣»
ومثل هذا رواه ابن خلكان «٤» وذكر كثيرون من اصحاب كتب التراجم .

وقد ذكر ياقوت ما كتبه الحميدي دون ان يتعرض له بالنقد «٥» ويعتبر هذا تسليماً من ياقوت بصحة ماذكره الحميدي . بالنسبة لوالد ابي بكر الزبيدي .

ولو ان القدر امهل الوالد حتى شب ابنه عن الطوق . وانتفع بعلمه واخذ عنه كما اخذ عنه غيره ـ لكانت نشاته حديث التاريخ . لكنها تقصت دون ان يصل الينا عنها ما يمكننا من دراستها ومعرفة الاسس التي قام عليها علمه . شانه في ذلك شأن اكثر اليتامى من النابهين الذين تمحي اثار

«١» وفيات الاعيان ٤ : ٨
«٢» المرجع السابق
«٣» جذوة المقتبس : ١٨٠
«٤» وفيات الاعيان ٤ : ٤
«٥» معجم الادباء ١٨ . ١٨٠

الحديث عن صباهم . على حين تعرفهم الحياة بعد في معتركها عباقرة مفكرين . وافذاذاً مرموقين .

نسبه : —

تكاد تجمع الكتب التي تحدثت عن الزبيدي على سلسلة نسبه مع قليل من الخلاف مرجعه الى الاختصار في بعض المراجع او الى الحاق «ال» باسم ابيه في بعضها وحذفها من البعض الاخر .

وهذه بعض النصوص التي ينبغي ان نستند عليها في ذلك
قال ابن الفرضي : محمد بن حسن بن عبدالله بن مذحج «١»
وقال الحميدي : محمد بن الحسن الزبيدي النحوى ابو بكر «٢»
وقال ابن خلكان : ابوبكر محمد بن الحسن بن عبدالله بن مذحج «٣»
وقال القفطي : محمد بن الحسن الزبيدي النحوى الاندلسي ابوبكر «٤»
وقال ياقوت : محمد بن الحسن الزبيدي الاشبيلي ابوبكر التحوى اللغوى «٥»
وقال الميرزا : محمد باقر في ترجمته : الحبر العماد ، والخبير الاستاذ

«١» تاريخ علماء الاندلس
«٢» جذوة المقتبس ٤٣
«٣» وفيات الاعيان ٤ : ٦
«٤» انباه الرواة ٣ - ١٠٨
«٥» معجم الأدباء ١٨ : ١٦٩

ابو بكر محمد ابن الحسن بن عبد الله بن المذحج .
الاندلسي المغربي اللغوي النحوى . الشهير بالزبيدي بالتصغير فيه – الجد الأعلى : زبيد بن صعب بن سعد العشيرة ... قبيله عمر بن سعد يكرب «١» .
ثم قال ابن خلكان بعد ذكرسلسلة النسب المتقدمة : ومذحج بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم وهو في الاصل اسم أكمة حمراء اليمن . ولد عليها مالك بن ادد . فسمي باسمها . ثم كثر ذلك في تسمية العرب . حتى صاروا يسمون بها . ويجعلونها علما على المسمى . وقطعوا النظر عن تلك الأكمة .
والزبيدي – بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها . وبعدها دال مبهمة .
هذه النسبة الى زبيد . واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج . وهو الذي سمي بالأكمة المذكورة .
وزبيد قبيلة كبيرة باليمن . خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم . رضى الله عنهم «٢» من هذه النصوص نرى ان نسب الرجل صريح وان عنصره عربي أصيل . وقد علا قدره . وشرفت منزلته بما وصل اليه من نبوغ في العلم وتفوق في البحث والتاليف وقد ذكر في بعض الكتب المتقدمة ان اصله من جند حمص المدينة التي بالشام .

«١» روضات الجنات . ٦٨٦
«٢» وفيات الاعيان ؛ ٩

ادبه وصفاته :ـ

قال ابن الفرضي في ترجمته : ...... من اشبيلية . سكن قرطبة فنال بها جاها عظيماً ورياسة «١»
وذكر المقرى كلام الفتح بن خاقان في صفة الزبيدي : ولنذكر بعض كلامة في المطمح لغرابته في هذه البلاد المشرقية . بخلاف القلائد فانها موجودة بايدي الناس فيه . قال رحمه الله في ترجمة ابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي : امام . اللغة والاعراب وكعبة الاداب . اوضح منها كل ابهام . وفضح دون الجهل بها محل الاوهام . وكان احد ذوى الاعجاز . واسعد اهل الاختصار والايجاز . نجم والاندلس اول تهممها . بالعلم واهتبالها . فنفقت له عندهم البضاعه . واتفقت على تعصيله الجماعة . واشاد الحكم بذكره فاوري بذلك زناد فكره «٢» .
فقد احتل الزبيدي في نفوس معاصريه منزله رفيعه . جعلته اماما يقتدي برايه . وكعبة تؤم وتقصد . وعينا من الاعيان يجالس الامراء وعليه القوم . ويدعى ليفصل في مسائل العلم وتعقد بحضرته حلقات الدرس والمناظرة .
ويكون له الحكم على اقدار الوافدين من العلماء ومما قاله الفتح ونقله المقري ايضا «٣» وله شعر مصنوع ومطبوع.

«٢» تاريخ العلماء والقسم ثاني
«٣» نفح الطيب ٩ : ٢٤٩ – ٢٥١
«٤» المرجع السابق

كانما يتفجر من ينبوع وقد اثبت منه مايقترح ولا يطرح فمن ذلك قوله : -

كيف بالدين القديم
لك من ام تميم
وقد كان شفاء
من جوى القلب السقيم
يشرق الحسن عليها
في دجى الليل البهيم
اعرفتني في بحور فكر
فكدت منها اموت اما
كلفتني غامضا عويصا .
ارجم فيه الظنون رجما
مازلت اسرو السجوف عنه
كانني كاشف لظلما
اقرب من ليلة وانأى
مستبصرا تارة واعمى
حتى بدا مشرق المحيا
لما اعتلى طالعا وتما
لله من منطق وجيز
قد جل قدرا وجل فهما
اخلصت لله فيه قولا
سلمت لله فيه حكما

اذ قلت قول امرئ حكيم
مراقب للاله علما

الله ربي ولي نفسي
في كل بؤس وكل نعمى

وكتب الى ابي مسلم بن فهد . وكان كثير التجبر ، عظيم التجبر . متغيرا لسانه ، مقفرا من العلم جنانه .

ابا مسلم ان الفتى بجنانه
ومقوله لا بالمراكب واللبس

وليس ثياب المرء تغني قلامة
اذا كان مقصورا على قصر النفس

وليس مفيد العلم والحلم والحجا
ابا مسلم طول القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر بالله امير المؤمنين فعجل اليه واسرع . فامرع من اماله ماامرع فلما طالت نواه ، واستطالت عليه لوعته وجواه . وحسن الى مستكنه باشبيلية ومثواه ـ استاذنه في اللحوق بها . فلومه ولواه فكتب الى من كان يالفه ويهواه :

ويحك يا سلم لا تراعي
لابد للبين من زماع

لا تحسبيني صبرت الا
كصبر ميت على النزاع

ما خلق الله من عذاب
اشد من وقفة الوداع

ما بيننا والحمام فرق
لولا المناجاة والتواعي
ان يفترق شملنا وشيكا
من بعد ما كان ذا اجتماع
فكل شمل الى افتراق
وكل شعب الى انصداع
وكل قرب الى بعاد وكل وصل الى انقطاع

وكتب المقري من شعره في موضع اخر فقال: وكان الزبيدي كثيرا ما ينشد :-

الفقر في اوطاننا غربة والمال في الغربة اوطان
والارض شيء كلها واحد والناس اخوان وجيران «١»

وقال ابن خلكان في ترجمته: وكان الزبيدي المذكور شاعرا كثير الشعر: ثم ذكر امثلة من شعره «٢»

ومما قاله القفطي عنه في تقديم شعره: وله شعر جميل فمن ذلك ما كتب به الى ابي مسلم ابن فهد ... «٣»

وكذلك كتب صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي عنه فقال بعد ترجمته وذكر مؤلفاته واستدعاء المستنصر له. وبعد قصيدته الى جاريته التي سبقت - قال الصفدي: قلت: شعر جيد «٤»

«١ نفح الطيب ٤ : ٦٤
«٢ وفيات الاعيان ٤ : ٦
«٣ انباه الرواة ٣ : ١٠٩
«٤ الوافي بالوفيات ٢ : ٣٥١

ولست ادري سببا لقول الثعالبي «١» وكان الشعر اقل ادواته فمما انشدت له في تكذيب منجم : —

يقول المنجم لي لا تسر	فانك ان سرت لاقيت ضرا
فان كان يعلم اني اسر	فقد جاء بالنهي لغوا وهجرا
وان كان يجهل سري فكيف	يراني اذا سرت لاقيت شرا

ثم يقول الثعالبي . وكأنه ينقض حكمه السابق على شعر الزبيدي :

«وله في رثاء شيخه ابي علي القالي البغدادي اللغوي قصيدة جزلة الالفاظ . كثيرة الغريب . صاغها صوغ فحول العرب . وضمنها قطعة من غريب كلامهم . وهي قصيدة طويلة اولها»

تالله يبقى لصرف النوى	ذو حسد في راس نيق منيف

ثم روى الثعالبي بعد ذلك شعره في الزهد والاجتماع . لذلك ارى قصد الثعالبي واضحا في ان شعره اذا قيس الى علمه كان اقل ادواته .

وقد هدانا شعره الى كثير من ارائه ومعتقداته من ذلك ما رواه المقري بقوله «وقال ابو بكر الزبيدي اللغوي :

لو لم تكن نار ولا جنة	للمرء الا انه يقبر
لكان فيه واعظ زاخر	ناه لمن يسمع او يبصر

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضي عنه «٢»

واذا كان الاسلوب هو الشخص فانه من اليسير ان نستنبط

«١» يتيمة الدهر ٦٢ : ٦٠

«٢» نفح الطيب ٦ : ٦٤

من كلام الزبيدي كثيراً من صفاته . ففي هذين البيتين يبدو يقين الايمان الذي يرقى بصاحبه الى مراتب الصالحين. وان مما يويد هذا انكاره على المنجم الرجم بالغيب فيما سبق من شعره . ثم صدق النظرة الى المجتمع البشري. تلك التي يتحدث بها شعره في قوله :-

اشعرن قلبك ياسا   ليس هذا الناس ناسا
ذهب الابريز منهم   فبقوا بعد نحاسا
سامريين يقولون   جميعا لا مساسا

ثم كان صاحب النفس البشرية الذي لاينسى متاع الحياة الدنيا الى جانب العلم والفضل استمع اليه يقول -

ما طلب العلوم الا لاسى   لم ازل من فنونها في رياض
ماسواها له بقلبي حظ   غير ما كان للعيون المراض «١»

من هذه الاثار تبدو خلال الزبيدي وتظهر فضائله فقد تجلت فيه صفة العالم الابي الذي يعرف قدر نفسه كما يعرف قدر غيره من العلماء .

علمه :-

يرى ابن الفرظي ان الزبيدي «كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة» «٢» وذكر الثعالبي انه «احفظ اهل

«١» نفح الطيب ٥ - ٢٤
«٢» تاريخ علماء الاندلس ٢ - ٩٢

زمانه للاعراب والفقه واللغة والمعاني والنوادر» «١»
وقال الحميدي : «من الائمة في اللغة والعربية» «٢»
وتحدث القفطي عنه بمثل ذلك «٣»
وقال ابن خلكان : «وكان اوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة . وكان اخبر اهل زمانه بالاعراب والمعاني والنوادر . الى علم السير والاخبار . ولم يكن بالاندلس في فنه مثله في زمانه . وله كتب تدل على وفور عمله «٤»
ونقل المقري عن الفتح بن خاقان قوله الذي قدمته : «امام اللغة والاعراب» وكعبة الاداب .... «٥»
وكذلك استهل ترجمته صاحب روضات الجنات بقوله «الحبر العماد والخبير الاستاذ» ثم قال بعد ذكر نسبه : «هو الحافظ المتقدم المؤرخ الذي قل ان يظفر بمثله ابد الدهر» «٦»
ونقل السيوطي ماكتبه ابن الفرضي عنه في بغية الوعاه
وفيما ذكره ياقوت الجزء العاشر من معجم الادباء في ترجمة الحسين بن العريف دليل قاطع على تمكن الزبيدي واصالته وحدة ادراكه مسائل العلم . قال ياقوت :ـــ

«١ جذوة المقتبس ٤٣
«٢ وفيات الاعيان ٤ :
«٣ صفحة ٦٨٦
«٤ يتيمة الدهر ٢ : ٦١ . ٦٢
«٥ انباه الرواة ٢ - ١٠٨ . ١٠٩
«٦ نفح الطيب ٩ : ٢٤٩ — ٢٥١

ومناظراته «يعني ابن العريف» مع ابي العلاء صاعد اللغوي البغدادي مشهورة . فمن ذلك ان المنصور جلس يوما وعنده اعيان مملكته من اهل العلم كالزبيدي صاحب الطبقات والعاصمي وابن العريف صاحب الترجمة وغيرهم فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا يزعم انه متقدم في هذه العلوم واجب ان يمتحن . فوجه اليه فلما مثل بين يديه والمجلس قد غص بالعلماء والاشراف خجل صاعد واحتشم . فادناه المنصور ورفع مجلسه واقبل عليه وساله عن ابي سعيد السيرافي . فزعم انه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه فبادره العاصي بالسوال عن مسالة من الكتاب فلم يحضره جوابها . واعتذر بان النحو ليس جل بضاعته .

فقال له الزبيدي : فما تحسن ايها الشيخ؟! فقال : حفظ الغريب . قال : فما وزن «اولق» ؟ فضحك صاعد وقال امثلي يسال عن هذا ؟ انما يسال عنه صبيان المكتب .. قال الزبيدي : قد سالناك ولا نشك انك تجهله فتغير لونه فقال : وزنه افعل .

فقال الزبيدي صاحبكم ممخرق «مموه كذاب» فقال له صاعد : اخال الشيخ صناعته الابنيته . فقال له : اجل . ثم عرف ياقوت للزبيدي قدره حين قال عنه في ختام ترجمته : قال المؤلف «يعني نفسه» وقد نقلت الى هذا ما نسبته اليه . وبلغني ان اهل الغرب كانوا يتنافسون في كتبه

خصوصاً كتابه الذي اختصره من كتاب العين لانه اتمه باختصاره . واوضح مشكلة وزاد فيه ماعساه كان مفتقراً اليه . وله غير ماذكر من التصانيف في كل نوع من الادب «١»
وقد اخذ الزبيدي علمه عن اعلام زمانه «سمع من قاسم بن اصبغ . وسعيد بن فحلون واحمد بن سعيد بن حزم وقيد اللغه والاشعار عن ابي علي البغدادي «٢» ولم تمنعه امامته حين وفد القالي ان ياخذ عنه . ودليل ذلك ماكتب الحميدي في ترجمة ابي علي القالي . «وممن روى عنه ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي صاحب مختصر كتاب العين» واخبار النحويين والواضح في النحو وكان حينئذ اماما في الادب ولكنه عرف فضل ابي علي فمال اليه واختص به واستفاد منه واقر له « ٣ »

مؤلفاته :ـ

انما يكتب للمرء الخلود على مر الاجيال . اذا ترك اثرا يذكر الخالفين به . ويتحدث اليهم بدلا عنه . وما من اثر يتركه المرء انفع للبشرية من علم مفيد . وها نحن نذكر كثيرين من العلماء الاعلام الذين فارقو الحياة منذ قرون . ونتحدث عنهم كانما يشاركوننا العيش ويبادلوننا الرأي

«١» معجم الادباء ١٨ : ١٨١
«٢» تاريخ علماء الاندلس جـ ٢ ٩٢
«٣» جذوة المقتبس ٣ : ١٥٥

فيما يجد ويعرض من مسائل العلم .
ولقد كان الزبيدي - رحمه الله - احد اولئك الذين خلدهم علمهم النافع وادبهم الغزير . واليك اقوال بعض العلماء عن مؤلفاته -
قال الحميدي : الف في النحو كتابا اسماه « الواضح » واختصر كتاب العين اختصارا حسنا . وجمع في الابنيه . وفي لحن العامة . وفي اخبار النحويين كتبا مشهوره . وفي غير نوع من الادب «١»
وزاد صاحب روضات الجنات في مؤلفاته :
« كتاب الرد على ابن مسرة » واهل مقالته سماه : هتك ستور الملحدين » «٢»
وفي تاريخ قضاة الاندلس اقتصار على المؤلفات الخمسه التي ذكرها الحميدي «٣» وقد وصف الفتح بن خاقان هذه المؤلفات فيما نقله المقري عنه من قوله « وله اختصار العين للخليل . وهو معدوم النظير والمثيل . ولحن العامة وطبقات النحويين وكتاب الواضح . وسواها من كل تاليف محجل لمن اتى بعده فاضح » «٤»
وفي موضع اخر من نفح الطيب : وكان كتاب العين للخليل مختل القواعد فامتعض له هذا الامام - ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي وصقل صداه كما

«١» جذوة المقتبس «٢» ص ص ٦٨٩ «٣» ترجمة رقم ٦٢٤ ص : ١٠٨ . ١٠٩ «٤» جـ ٩ : ٢٤٩

يصقل صدأ الحسام . وابرزه في اجمل منزع .حتى
قيل . هذا مما ابدع واخترع . وله كتاب في النحو
يسمى الواضح » «١»

وعندما ذكر ابن خلكان مؤلفات الزبيدي الستة خص اثنين منها بقوله : » وكتاب الواضح في النحو . وهو مفيد جدا. وكتاب الابنية في النحو . ليس لاحد مثله » «٢» اما السيوطي فقد نقل هذه الفائدة في كتاب المزهر فقال : قال ابو الحسن الشاري في فهرسته: كان شيخنا ابو ذر يقول : المختصرات التي فضلت على الامهات اربعة :

مختصر العين للزبيدي. ومختصر الزاهر . ومختصر سيرة ابن اسحاق هشام ومختصر الواضحة للمفضل بن سلمة «٣».. واشاد في بقية الوعاة بكتاب طبقات النحويين للزبيدي. فقال : وهو مجلد لطيف رايته بمكة المشرفة وطالعته على هذه الطبقات «٤»

وذكر القفطي مؤلفات الزبيدي بقوله : الف في النحو كتابا سماه الواضح واختصر كتاب العين اختصارا حسنا . .. وكتابا في لحن العامة. وكتابا في اخبار النحويين . ورسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين الى غير ذلك «٥» وبالنظر في هذا النص نعلم ان الزبيدي قد الف سبعة كتب باضافة «رسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين »

«١ ج ٥ : ١٥٢ «٢» وفيات الاعيان ٤ ٦
«٣ ج ١ . ٨٦ . «٤» ص «٥» أنباه الرواة ٣ . ١٠٨

وحين نقل ياقوت ترجمته عن الحميدي في معجم الادباء علق عليها بقوله ــــ

«وقد نقلت الى كتابي هذا ما نسبته اليه . وبلغني ان اهل الغرب كانوا يتنافسون في كتبه . خصوصاً كتابه الذي . اختصره من كتاب العين لانه اتمه باختصار . واوضح مشكلة وزاد فيه ماعساه كان مفتقراً اليه . وله غير ما ذكرناه من التصانيف في كل نوع من الادب «١» وعبارة ياقوت الاخيرة هذه . التي تدلنا على ان مؤلفاته اكثر مما ذكر قد قد كررها غيره . فمثلها في جذوة المقتبس . وفي روضات الجنات . وفي تاريخ قضاة الاندلس . وفي نفح الطيب وفي انباه الرواة دليل على ما ذكر آنفاً .

وقد طبع من هذه المؤلفات كتاب «طبقات النحويين واللغويين» الذي يعتبر بحق رائداً لانه وضع الاساس لمعرفة المدارس النحوية واللغوية على اختلاف عصورها واتجاهاتها . كما طبع كتاب للزبيدي في روما سنة «١٨٩٠م» والعنوان الذي عليه هو «كتاب الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات على ماأورده فيه مهذبا للزبيدي وهذا الكتاب في حاجة الى تحقيق ونشر من جديد وفي مقدمة هذا الكتاب يعطي سيبويه حقه . ويعلي درجته . ويتحدث بفضله ..

وفي المجلد الثالث من مجلة المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة «١٩٥٧م» تحت عنوان الفاظ مغربية من كتاب أبي هشام اللخمي في لحن العامة» بقلم الدكتور عبد

---

٢٤ ج ١٨ : ١٨١

العزيز الاهواني – هذا في المجلد تحدث الكاتب عن كتاب الزبيدي ويكفي ان انقل هنا ما ورد عنه في الصفحة السابقة بالهامش : «النسخة التي بين يدي من هذا الكتاب صورة عن الاستانة وهي سقيمة مصحفة لاتصلح وحدها اصلا لنشر الكتاب .... وعنوان كتاب الزبيدي حسب ماهو موجود في السطر الاول من الصفحة الاولى من نسخة استانبول «كتاب فيه لحن العوام»
وممن نقل عن هذا الكتاب البغدادي في خزانة الادب في صفحات مختلفة من اجزائه منها صفحتا «٦٧ . ٤٥٨» بالجزء الاول .
واما كتابا «الرد على ابن مسرة» و «رسالة الانتصار للخليل فلا اعلم عنهما شيئا» ومن كتاب الواضح نسختان لابد من اجتماعهما عند التحقيق هما — الاصل الاول محفوظ بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم «١٧١» وعن هذا الاصل بدار الكتب بالقاهرة نسخة تحمل رقم «٢٢٠ميكروفلم» . وعدد اوراقة «١٧٢» وقد وصف بما دون عليه وهو «نسخة اثرية بخط مغربي قديم يشبه الخط الكوفي . وهي مكتوبة برسم مخلوف بن خلف بن عباس الحنفي .»
وتحت هذا : «في هذا السفر جمع كتاب الواضح لابي بكر الزبيدي رحمه الله لمخلوف بن خلف بن عباس الحنفي» كما يظهر هذا في الصفحة الاولى.

والاصل الثاني كتب عنه في فهرس الاسكوريال ....
«الواضح» في النحو : ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي .
هذا كتاب منسوخ من كتاب الواضح في النحو. باب اقسام الكلام .
اقسام الكلام كله ثلاثة اسم وفعل وحرف جاء لمعنى .
فالاسم قولك: رجل وفرس وحمار وزيد وعمرو وما اشبه ذلك.
وعدد صفحاته «٢٢٤» في كل صفحة «١٩» سطرا .
وامام القارىء بعض الصور من كلتا المخطوطتين . وقد
ذكره ابن خير في فهرسته فقال : صورتا النسختين الاولى
والاخيرة كتاب الواضح في النحو لابي بكر الزبيدي –
رحمه الله– حدثني به الشيخ ابو عبدالله محمد بن سلمان
بن احمد النفزي . عن خاله الاديب ابي محمد غانم بن
وليد المخزومي عن ابي بكر بن عبادة بن ماء السماء . عن
ابي بكر محمد بن حسن الزبيدي مؤلفه «١» وقال عنه ابن
حزم : «واقل ما يجزىء من النحو كتاب الواضح للزبيدي «٢»
وقد ظفر مختصر العين للزبيدي بثناء العلماء عليه . كما ظفر
كتاب الانبية بمثل هذا الثناء وكذا سائر اثاره . ومنه نسخة
خطية بدار الكتب بالقاهرة واخرى بالتيمورية . ومن هذه
العجالة تبدو ملامح شخصية فذة . مر على وفاة صاحبها
اكثر من الف عام ولكنه ما يزال ماثلا في كتبنا وفي بحوثنا
نردد «ارآءه» مقرونة باسمه . نؤيد منها ما نؤيد

«١» فهرسة الاشبيلي : ٣١١
«٢» رسائل ابن حزم : ٦٥

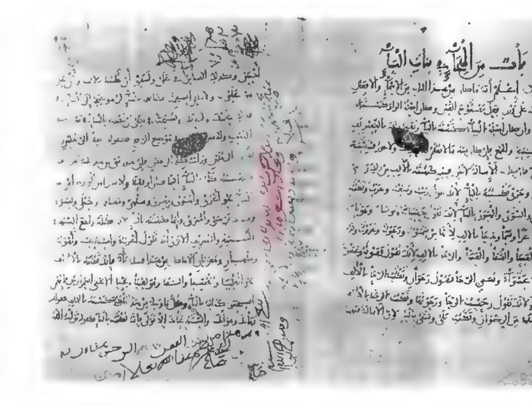
ونعارض منها ما نعارض وهو صاحب الفضل في كلا الحالين .

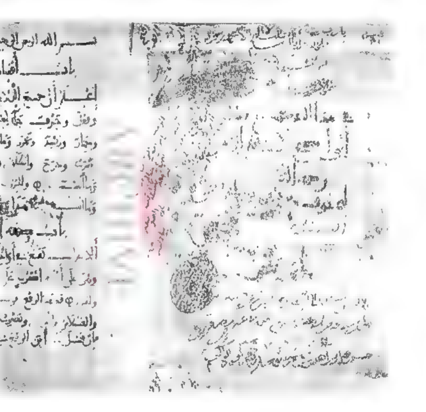
وقد جمع الله له بين العلم والجاه . اذ قد ظفر بثقة الحكم المستنصر بالله صاحب الاندلس فصيره مؤدبا لولده هشام ونال منه دنيا عريضة . وتولى قضاء اشبيلية وخطة الشرطة. وحصل نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمانا . «١» وترجمة الزبيدي واسعة» «٢» كما قال المقري .ولعل خير ما تختم به هذه اللمحة «٣» تلك العبارة التي نقلها المقري ايضاوهي «وبالجملة فهو بالمغرب بمنزلة ابن دريد بالمشرق»

«١» وفيات الاعيان ٤ ٧

«٢» نفح الطيب ٤ · ٧٤

«٣» نفح الطيب ٥ : ٢٤





بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله أولاً وآخراً

باب أقسام الكلام

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا

ومولانا محمد ... وآله وسلم تسليما

هذا الكتاب ...

Foto "PRADO"

José de Prado Herranz

Santa Clara nº 5

San Lorenzo de El Escorial

(Madrid) España

Ms. nº 1977

Escorial

الكرامية حركة دينية وسياسية

ـ دراستها من خلال سير قادتها ـ



الدكتور مفيد محمد نوري

رئيس قسم التاريخ بالوكالة

كليـــة الآداب

الكرامية حركة دينية وسياسية

دراستها من خلال سير قادتها

الفقه فقه ابي حنيفة وحده
والدين دين محمد بن كرام
إن الذين اراهم لم يؤمنوا
بمحمد بن كرام غير كرام «١»
(ابو الفتح البستي)

بلغت الكرامية - في بداية القرن الحادي عشر الميلادي - اوج عظمتها ، كطائفة دينية ذات نفوذ واسع بين فقراء خراسان وبخاصة الفلاحين الذين عدوا ركيزة صلبة للسلطان محمود الغزنوي «٩٩٨ - ١٠٣٠ م» الذي كان يتطلع الى مد فتوحاته في الهند ، فكان من عادته ان يسند المناصب الادارية في دولته ولا سيما رئاسة المدن ، الى اعيان البلد . وكان يلجأ احياناً الى منح هذه المناصب لزعماء المسلمين الذين كانوا يمتلكون تأثيرا شعبياً واسعاً بين السكان . وهكذا نرى ان رئاسة مدينة نيسابور - عاصمة خراسان - اسندت فترة من الزمن الى ابي

---

(١) العتبي ، ابو نصر محمد ، التاريخ اليميني، (القاهره ١٨٦٩/١٢٨٦) ، ٢ / ٣١٠ . نقلت هذه الابيات بشكل مختلف عند .السبكي ، تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى، (القاهرة ١٩٦٤) ، ٣ / ٣٠٥ ، الزبيدي ، محمد مرتضى، تاج العروس (بيروت ١٩٦٦) ، ٤٣/٩

بكر محمد ، زعيم الطائفة الكرامية التي وصفها بارتولد Barthald بالزهد والتقوى (Pietistic) الا انها كثيرا ما كانت تلجأ الى استخدام اساليب العنف ضد كل من يحاول الوقوف في طريقها ، حتى لنستطيع القول بان خراسان شهدت على يديها ثورة اجتماعية ودينية وسياسية : استمرت الى ما يقرب من قرن «٢» .

ان مؤسس هذه الطائفة هو ابو عبد الله محمد بن كرام بن عراف. ولد سنة ٨٠٥م : في قرية زرنج في سجستان . عن أب عربي من قبيلة نزار ، وكان والده ـ حسبما تذهب معظم الروايات ـ يعمل خازناً للكرم فقيل له الكرام «٣» . وقد ترك سجستان في صباه . وتنقل في بلاد الغور وكرجستان

---

(٢)
Borthold , W . , Turkestan down to the Mongol invasion , (London 1928), 289

وانظر عن الكرامية عند :
Bosworth, C. E. , 'The rise of the Karamiayyah in Khurasan; Muslim world , L (1960) , 5-14 ; idem , The Ghaznauids (994 - 1040) Edinburh 1963), 185-89 ; massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique mystique (paris 1922) , 230-42 ; Nouri , M. M . , The scholars of Nishupur, thesis (Edinburgh 1967), I, 90-93 : II , 260-63 .

(٣) السمعاني ، ابو سعد عبد الكريم ، كتاب الانساب (الطبعة الحجرية) (لندن ١٩١٢) . ٤٧٦
ابن الاثير ، عز الدين ، اللباب في تهذيب الانساب (قاهرة ١٣٥٦ هـ) ٣٠ / ٣٢ : الذهبي ، شمس الدين محمد ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، (القاهرة ١٩٦٣) ٤ / ٢١ — ٢٢ .

وأطراف خراسان . ناشراً مبادئـه وتعاليمه . معلناً خلافه للمذاهب السنية والشيعية على السواء . ثم قدم بلخ ، وكثرت لقاءاته هناك بالزاهد احمد بن حرب حيث أخذ التقشف عنه . ثم درس الحديث على ابراهيم بن يوسف الماكيـاني . وما لبث ان غادر بلخ الى سرو : وروى هناك عن علي بن حجر ، ثم درس الحديث في هراة على يد عبد الله بن مالك السليماني . وبعد ان جاور في مكة خمس سنين «من ٨٤٤ الى ٨٤٩م» ، قفل عائدا الى موطنه في سجستان ماراً بالقـدس فنيسابور . وعنـد وصوله سجستان باع كل ممتلكاتـه واظهـر التنسك والتعبـد والتقشف : واخذ يصرح بالتجسيم ويدعو الى التشبيه . فافتتن به جماعة من القرويين ولكن اهل سجستان حقدوا عليه ووقفوا في طريقه . وسعوا في قتله . إلا ان صاحبها تخوف من الاقدام على ذلك لما رأى في ابن كرام من مخايل التعبـد والتقشف ، واكتفى بنفيه الى نيسابور حيث راح يعظ الفلاحيـن وينشر مبادئه في التجسيم والتشبيه فتبعه كثيرون . «٤»

كان ابن كرام يتميز بزيه الخاص المكون من جبة غير مخيطة مصنوعة من جلود الاغنام ، وقلنسوة بيضاء ، ولكي يستميل اليه عدداً اكبر من المناصرين : اتخذ له حانوتاً لبيع اللبن ، تميز ببساطة واضحة حيث كان ابن كرام يطرح فيه قطعة من فرو يجلس عليها وهناك كان يلتقـي باتباعـه فيحدثهم ويعظهم ويبشرهم بتعاليمـه . وفي نيسابور اجتمـع ابن كرام بأئمـة

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣ / ٣٠٤ : الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ : الصفدي ، صلاح الدين خليل ، الوافي بالوفيات (استنبول ٥٩ – ١٩٣١) ، ٤ / ٣٧٥ – ٣٧٦ .

الشافعية والحنفية غير مرة : وحدثهم وناقشهم في كثير من المسائل الفقهية والاعتقادية : وكان على رأس محاوريه ابن خزيمة المتكلم وأحد أئمة الشافعية في المنطقة . وابو سعيد عبد الرحمن بن الحسين الحاكم ، أحد كبار الائمة الحنفية هناك .

وصادف خلال وجود ابن كرام في نيسابور حضور الامام ابو عبد الله البخاري صاحب الصحيح . فدس اليه ابن كرام كتاباً سأله فيه عن عدد من الاحاديث رفع احدها الى الزهري . ونصه « الايمان لا يزيد ولا ينقص » فذيل البخاري كتابه هذا بعبارة اعلن فيها عن سخطه على ابن كرام بسبب ما كان يتناقله من احاديث موضوعة . « ٥ »

نشط ابن كرام في توسيع دعوته بالتجسيم بين الطبقات الفقيرة . وقد اورد البغدادي والشهرستاني والرازي وغيرهم عدداً من آرائه وبدعه في العقائد الاسلامية . وما لبث ان انضم الى دعوته عدد كبير من اهالي نيسابور مدفوعين مما كانوا يرونه على شيخهم من مظاهر التنسك والتأله والتعبد ، لكن ذلك لم يمنع من قيام حركة نقد مضادة لدعواه من اهالي نيسابور نفسها حيث راح يعقد مجالس للحديث والكلام دارت فيها مناقشات شتى . « ٦ »

---

(٥) الصفدي ، الوافي ، ٤ / ٣٧٦ : الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ ، قارن :
Boswolth, the rise of the Karamiyyah , 5-6

(٦) البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر ، الفرق بين الفرق (القاهرة تاريخ الطبع لايوجد) ، ٢١٥ – ٢٢٥ : الشهرستاني ، ابو الفتح محمد ، كتاب الملل والنحل ، (لندن ١٨٤٦) ، ٧٩ – ٨٥ : الرازي ، فخر الدين (القاهرة ١٩٣٨) ، ٦٦ .

اضطر امير خراسان محمد بن طاهر بن عبيد الله « ٨٦٢ ـ ٨٧٣م » الى اعتقال ابن كرام بنيسابور بسبب ادعائه بان الله تعالى جوهر ، وبسبب اصراره على ما كان يدعو اليه من افكار وتصورات تخالف ما ذهب اليه اهل السنة والجماعة وقد بقي ابن كرام في معتقله طيلة ثماني سنوات . وروى عن حاله في السجن انه كان يغتسل صباح كل يوم جمعة . ويتأهب للخروج الى الجامع قائلا للسجان : اتأذن لي بالخروج ؟ فيجيب السجان : لا . فيقول : اللهم اني بذلت مجهودي . والمنع من غيري . وعندما اخرج من السجن . وعقد له مجلس حضره الامير محمد بن طاهر . حيث راح ابن كرام يؤكد ثانية بان علمه ما هو الا الهام من الله تعالى . ويكثر من وضع الاحاديث المكذوبة . الامر الذي دفع الامير الى ضربه ونفيه عن نيسابور فاضطر الى الرحيل الى الشام حيث توفي في احدى قراها عام ٨٦٩م . فحمله اصحابه الى القدس ودفن هناك . « ١ »

كان لتعاليم ابن كرام تأثير كبير على جماهير البسطاء من الفلاحين والمعدمين من ابناء خراسان . وقد تبلورت مبادؤه وتعاليمه على شكل حركة تبشرية في انحاء واسعة من البلاد الاسلامية حيث انتشر تلاميذه في القرن العاشر الميلادي . وقد بلغ هؤلاء من الكثرة بحيث اصبحوا يعيشون في احياء

---

(١) الصفدي ، الوافي ، ٤ / ٣٧٦ - ٣٧٧ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣/٣٠٥ ؛ الذهبي ، ميزان ، ٤ / ٢١ .

خاصة لهم وفي عدد من الخانقاهات « مراكز دينية وتعليمية » المنتشرة في بغداد والقدس والفسطاط . لكن خراسان وبلاد الغور وكرجستان ظلت المراكز الرئيسية للحركة الكرامية حيث نشط ابن كرام وبذر تعاليمه في بداية حياته . « ١ » ولقد اشار ماسنيون Massignon – بصدد الكلام عن الخانقاهات الكرامية – بان هذه الخانقاهات والمدارس التعليمية التي انشأتها تلك الطائفة ما هي الا بدايات للمدارس السنية التي نمت بعدئذ . ولكن يبدو ان هذا الاستنتاج ضعيف لكون المدارس السنية نشأت مستقلة عن الخانقاهات فضلا عن اشارة بعض المصادر الى وجود عدد من المدارس السنية التعليمية التي كانت قد انشأت قبل ظهور الحركة الكرامية . « ٢ »

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي بدأت الحركة الكرامية تأخذ طابعها السياسي حيث اخذ دعاتها يتقربون الى

---

(١) المقدسي ، ابو عبد الله محمد ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (لندن ١٨٧٧) ، ١٧٩ ؛
ياقوت الحموي ، ابو عبد الله ، معجم البلدان (ليبزك ٦٦ – ١٨٧٣) ، ٢ / ٣٩

(٢) انظر

Mossignon , Essai . , 232 :

وقارن :

Boswolth , The Ghaznauids, 186 :

لقد اورد ابن ابي الوفاء ان البخاري قد درس في مدرسة بخارى شيدها أبو حفص الكبير في القرن التاسع الميلادي ، ومدرسة اخرى في بيهق بخراسان شيدها ابو الحسن البيهقي كما ذكره ابن فندق . انظر ، ابن ابي الوفاء ، محي الدين ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ١ / ٦٧ ؛
ابن فندق ، علي بن يزيد ، تاريخ بيهق (طهران ١٩٣٨) ، ١٥٨ .

حكام خراسان رغبة منهم في القضاء على الباطنية والروافض من الذين نشطوا هناك . وقد جاء نشاط الكرامية السياسي مع بداية ظهور الدولة الغزنوية . حيث قادهم الخطيب المتكلم ابو يعقوب اسحاق بن محمشاد الذي قيل بانه قد جلب الى حضرة الاسلام خمسة آلاف من اهل الكتاب والمجوس ، والذي كان له تأثير كبير على سبكتكين - والد السلطان محمود الغزنوي - لدى قيامه بقيادة الجيوش السامانية في خراسان . حتى قيل بان هذا القائد الغزنوي قد انضم فعلا الى الطائفة الكرامية . «١»

وعندما تسلم الحكم محمود الغزنوي سار على سياسة ابيه في التقرب الى هذه الجماعة . فمنحهم تأييده واستخدمهم كقوة ضاربة ضد المتطرفين من المعتزلة والباطنية . وقد حاول امام الكرامية ابو بكر محمد الاستفادة من تأييد السلطان الغزنوي وسعى الى تنفيذ مخططاته ومشاريعه السياسية الرامية الى الهيمنة على الطبقة الغنية من النبلاء - التي قد اطلق عليها بوزولت الطبقة البرجوازية الكبرى (haute bourgeoisie) وعدد من العلماء في نيسابور . «٢»

وقد حدث عام ١٠٠٦م ما عزز العلاقات بين السلطان وامام

(١) العتبي ، ٢ / ٣١٠ : الجوبادقاني ، ابو الشرف ناصح ، ترجمه تاريخ يميني ، (طهران ١٩٠٠) ٢٥٤ ؛ الذهبي ، ميزان ، ١ / ٥٥ص : ابن العماد ، ابو الفلاح عبد الحي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة ١٩٣٨ - ١٩٤١) ، ٢ / ١٠٤ .

(٢)
Boswolth, the Gdaznauids ., 172

الكراميـة . ذلك عندما قام القرخانيسون باحتلال نيسابور حيث هالهم نشاط الكراميـيـن وما بلغـوه في المدينة من قوة وتمكن فقاموا باختطاف امامهم لدى مغادرتهم المدينة . الا ان هذا تمكـن مـن الهـرب قبل تقـدم الجيوش الغزنوية واشتباكها مع العدو . وبعد النصر الذي حققه السلطان محمود ضد القرخانيين ؛ عين امام الكرامية على رئاسة مدينة نيسابور ومنحه سلطات مطلقة في المدينة . «١»

سـعى ابو بكـر محمد الى استغـلال سلطانه في نيسابور واستخدم اساليب العنف ضد الفرق الباطنية والفرق المنحرفة من اصحاب البـدع ؛ وكثيراً ما كان يأخـذ امـوالا من بعض اصحاب البدع ثمنا لسكوته عليهم وعدم معاقبته لهم. وقد لعب خلال حكمه دوراً مهما في محاكمة واعدام الداعي الفاطمي طاهـر في عام ١٠١٢ - ١٠١٣م . الـذي ارسله الحاكم الفاطمـي الى بـلاد المشرق لنشر تعاليـم الفاطميـة متخفيا وراء صفته كرسول سلمي من الخليفة الى السلطان محمود . ولقد القى القبض عليه لدى وصولـه هراة وارسل من هناك الى نيسابور حيث استجوبه امام الكرامية واعلن بان مبادئه خطرة على الدولة الغزنوية وانتهى الامر باعدامه . «٢»

---

(١) العتبي ، ٢ / ٣١٠ - ٣١٢ ؛ الجورباذقاني ، ٢٥٤ .

(٢) العتبي ؛ ٢ /٢٣٧ - ٢٥٠ ؛ الجرباذقاني ٢٣٧٠ - ٢٣٩ ؛ كرديزي ، بو سعيد ، زين الاخبار (برلين ١٩٢٨) ؛ ٧١ ؛ قرت .

Boswolth , The Ghaznauids , 187,
Barthold , Turkestan., 291 .

استمر ابو بكر محمد في مطاردة الفرق والعناصر المبتدعة وبصورة خاصة الروافض مستخدما كافة الوسائل التي اتيحت له فهدم مسجداً كان الروافض قد شيدوه في نيسابور. وهاجم فرقة صوفية ظهرت في خراسان وتزعمها ابو سعيد بن ابي الخير الذي يعتبر صاحب اول رباعيات باللغة الفارسية. وقيل ايضاً انه هاجم بعض اصحاب الكلام كالعلامة محمد بن حسين بن فورك الذي قدم نيسابور وصرح بتعاليمه الدينية ذات الطابع المعادي لما كان ينادي به الكرامية، وقيل ايضا ان هؤلاء اتهموه بالاعتزال والبدعة الامر الذي دفع السلطان محموداً الغزنوي الى استدعاء ابن نورك للمثول بين يديه في عزنه عاصمة دولته. وبعد ان استجوب في بلاط السلطان تبين زيف الادعاءات التي الصقت به فاطلق سراحه. كما لحقت اساليب العنف التي اتبعها الكرامية بعض رجال الحديث كالحاكم أبي عبد الله محمد بن البيع صاحب اول كتاب في علم الحديث الذي سماه « المدخل الى معرفة الاكليل » ومؤلف كتاب تاريخ نيسابور. «١»

ولا شك ان سياسة ابي بكر محمد في محاربة الباطنية وبعض الفرق الصوفية لعبت دوراً في جذب بعض قادة

---

(١) ابن الجوزي ؛ ابو الفرج عبد الرحمن ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ؛ (حيدر آباد ١٩٣٨ – ١٩٤١) ٢٧٥/٧ ؛ الصفدي ، الوافي : ٣٢١/٣ ؛ محمد بن المنور ؛ اسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابو سعيد ، (طبع ١٨٩٩) ؛ ٨٤ – ٨٥ ؛ السبكي ؛ طبقات الشافعية ؛ ٥٣/٣ ، ابن العماد ؛ شذرات ؛ ١٨٢/٣ . عبد الغافر الفارسي ؛ السياق لتاريخ نيسابور (مخطوطة) اسطنبول ، كوبرلو ١١٥٢) ؛ ٣

الطبقات الدينية في المدينة وعلى رأسهم امام الحنفية القاضي صاعد وعلماء آخرون . الا انه سرعان ما حدث خلاف وتصدع في العلاقات بين امام الحنفية هذا وزعيم الكرامية ، وكانت المسائل التي اثير الخلاف حولها فقهية وكلامية في ظاهرها ، وصراعاً على السلطة في نيسابور في حقيقتها . «١»

وبعد عودة القاضي صاعد من الحج عام١٠١١-١٠١٢م اتجه الى غزنة واتصل بالسلطان محمود واستطاع خلال احدى المناظرات الاسلامية في البلاط الغزنوي اقناع المسؤلين بانحراف التعاليم الكرامية عن الشريعة الاسلامية بسبب دعوتهم الى التجسيم وما رافقته من تعاليم اخرى . وحينذاك استدعى السلطان ابا بكر محمد امام الكرامية وجابهه بالاتهامات التي قيلت بحقه ، فانكر أبو بكر ما وجه اليه . الا ان السلطان لم يقتنع بذلك، واصدر امره الى حكام بلاده باستجواب اعضاء الطائفة الكرامية ومنعهم من التعليم في المدارس او الخطب على المنابر . وما لبث السلطان محمود الغزنوي ان خطا خطوات اخرى ضد الكرامية . وذلك بتشكيل لجنة تحقيقية برئاسة ابي محمد الناصحي قاضي قضاة غزنة للتحقيق مع ابي بكر محمد والقاضي صاعد الحنفي . ولدى التحقيق تبادل الطرفان الاتهامات بالاعتزال والتجسيم . الا ان شهادة حاكم خراسان جاءت لصالح القاضي صاعد فضلا عن ان

---

(١) انظر :

Boswolth, the Ghaznauids ., 188

السلطان محمود رفض هو الاخر قبول الاتهام الموجه الى القاضي بكونه معتزليا او مجسماً وقد اسفرت التحقيقات عن اقصاء ابي بكر محمد من رئاسة نيسابور وتعيين حسنك احد اعيان البلد ومن المقربين الى السلطان وهكذا عاد هذا المنصب الى الطبقة البرجوازية الكبرى في المدينة . «١»

طبق حسنك سياسة رادعة ضد الكرامية منذ اليوم الاول لتسلمه الرئاسة وقد اشار العتبي بان حسنك فاق زياد ابن ابيه الوالي الاموي في قسوته . وانزل نقمته على قادة الكرامية في نيسابور واعتقل عدداً من زعمائهم في سجن القلعه بالمدينة اما الامام أبو بكر محمد فقد انتهى به المطاف الى الاعتزال في منزله وتكريس حياته للتعبد والزهد وظل بمنأى عن عقاب الحاكم الجديد.

وما لبث حسنك ان انذر بقية الطوائف وبخاصة الروافض بان مصيرهم يعتمد بالدرجة الاولى على مدى استجابتهم للسلطة الامر الذي دفعهم الى مبايعة السلطان وتطرفوا في تأييدهم له الى الحد الذي جعلهم يطلقون عليه ظل الله في الارض «٢»

وهكذا كانت نهاية الحاكم القصير للكرامية في خراسان ، ورغم ذلك فقد ظلت هذه الطائفة تنشر تعاليمها دون ان تستعيد مكانتها السياسية السابقة . ويذكر ابن الاثير ان فتنة حدثت في نيسابور عام ١٠٩٥ بين الحنفية والشافعية بقيادة

---

(١) الجرباذقاني ؛ ٢٥٥ ؛ العتبي ؛ ٣١١/٢

(٢) المصدر السابق ؛ ٣١١/٢– ٣٢٥ ؛ الجرباذقاني ؛ ٣٥٤ – ٣٥٨ ؛ قارن ؛
Boswolth, Turkestan, 289 - 90

التامني أبي سعيد محمد بن صاعد «ابن القاضي صاعد» من جهة والكرامية بقيادة محمشاد من جهة اخرى . وانتهت بقتل عدد كبير من الطائفة الاخيرة وتدمير مدرستهم في نيسابور . «١»

استمرت الكرامية على نشاطها كطائفة لها اتباعها في خراسان وما وراء النهر الى نهاية القرن الثالث عشر حيث فقدت بعد ذلك حيويتها ولم تعد قادرة على ان تلعب دوراً يذكر في مجالات الحياة المختلفة «٢»



(١) ابن الاثير ، عزالدين ، الكامل في التاريخ (ليدن ١٨٥١ – ١٨٧٦) ، ١٧١،١٠

(٢)

Barthold. Turkestan, 289-290

وانظر حول تاريخ الكرامية المتاخر في منطقة الغور :

Boswalth, The Early Islamic History ofGhur ' Central Asiatic Journal ' V 1 (1961), 116-33

اقتراحات في التدريس والمنهـج التاريخي

الدكتور عماد الدين خليل

تشكل مادة التاريخ وسيلة من اهم وسائل التثقيف في المؤسسات الاكاديمية ؛ لا سيما بعد التطور الكبير الذي طرأ على الدراسات التاريخية في حقولهـا المختلفة . وبعـد ان ظهرت مذاهب شتى للتفسير التاريخي تشحذ ذهن الانسان وتدفعه للكشف عن آفاق جديدة في حقول المعرفة . اعتمادا على ما يقدمـه التاريخ من احداث وظواهر وسنن تسير فاعليات البشرية وترسم مصائرها .

وهكذا . فان بامكان التاريخ ان يتخذ وسيلة لتخريج طلاب يمتلكون القابلية على استقراء الظواهر والاحداث . وتحليلها ، ومقارنة بعضها ببعض . وادراك طبيعة السنن والقوانيـن التي تحكم نشاط الجماعات البشرية . وتطـور الحضارات وعوامل سقوطها . فضـلا عن تميز هؤلاء الطلبـة بثقافة واسعة بحكم تخصصهم في فرع - يعد اليوم - من اشـد الفروع اهمية في سعة مساحته . وامتداد آفاقه . وعمق اغواره . واعتماده - بما انه تجربة البشرية وحصيلة معطياتها - عـلى معظم الادوات التي تيسرها له العلوم الاخرى . وبخاصة الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والاداب والفنون . لانها جميعا تساعد على تعميق الاضـواء الكاشـفة عن طبيعة الحـدث التاريخـي ، ودوافعه واهدافه ، وعلاقاته بالاحداث الاخرى القبلية والبعدية ؛ وعن

المصير الذي تتشكل به هذه الاحداث جميعا . والسنن التي توجهها في هذا الطريق دون ذاك .

ومن ثم يبدو ان التخصص في التاريخ يفتح الطريق امام الطالب لان يمتلك ثلاث امكانيات تعد اساسا متينا للثقافة الحقيقية . اولاها القدرة على التحليل والمقارنة . وربط الجزئيات في أطر كلية وتشكيلات موحدة في طبيعتها ودوافعها واهدافها . وتعطيه امكانية الرؤية الواسعة لما يجري على سطح الارض من أفعال واحداث . ولما ينتج عن نشاط الانسان من معطيات . ومن ثم يتيح له ـ هذا التخصص ـ ان يصل بسهولة الى تفسير مقنع للتاريخ ، والايمان بتصور معين ينبثق عن هذه الرؤية لرصيد التاريخ ، والقدرة الاصيلة على تحليله ومقارنته . وثانيتهما الاطلاع على مساحات واسعة في حقول المعرفة البشرية لا تتيسر لطالب الفروع الاخرى بسبب عدم اهميتها له . . وهكذا فان طالب التاريخ يتخرج وهو يمتلك معلومات واسعة عن الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والآداب والفنون . . . الخ بسبب من ارتباطها الوثيق بالتاريخ . وثالثتها منح الطالب القدرة على تشكيل المعلومات : في اي موضوع . في نسق معين . لاعطائها معنى خاصا . او للتوصل الى حقيقة مهمة من حقائق التاريخ . وذلك بتمرسه على كتابة التقارير والابحاث التي تمكنه في المستقبل من الكتابة والتأليف اعتمادا على ما يمتلكه من معلومات عن فن الكتابة ، وطريقة تنسيق المعلومات .

ان امتلاك الطالب لهذه الامكانات الثلاث ـ بعد تخرجه ـ

بدرجة او أخرى . يعني ان هذا الفرع المهم في الاكاديميات قد حقق هدفه على احسن ما يكون . دون ضرورة - ابدا - لتكديس كثير من تفاصيل التاريخ وجزئياته تكديسا عشوائيا ، لا يخدم ايا من هذه القيم الثقافية الثلاث.

ولكن الذي يحدث - للاسف - ان فروع التاريخ في جامعاتنا لا تخرج طلبة يمتلكون جانبا كافيا من هذه القيم الثلاث . وذلك يعود بالدرجة الاولى الى النظم التعليمية التي تسود هذه الفروع . فهي تؤكد دائما على تكديس مزيد من تفاصيل التاريخ في اذهان الطلاب . وعلى الاسراع بتغطية كافة تاريخ البشرية قبل ان يخرج الطالب ويهرب من بين ايديها !! وهكذا تصب في اذهان الطلاب تفاصيل كل الفترات ابتداءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية . دون اي اهتمام بتوجيه الطالب نحو المقارنة والتحليل . او توسيع آفاق رؤياه للتاريخ . ودون اي اكتراث باعطائه قاعدة ثقافية واسعة من العلوم والمعارف التي لها مساس مباشر . او غير مباشر ، بالتاريخ ، فضلا عن عدم اهتمامها - الا بشكل ثانوي - بتعويد الطالب على البحث . والتنسيق الفني . والتأليف . ومع اهتمام هذه الفروع بالتفاصيل والجزئيات . وتأكيدها على الناحية الكمية . لا الكيفية للتاريخ . وان الطالب ما ان يتخرج حتى يلف النسيان معظم هذه التفاصيل . ولا يتبقى في ذهنه الا الخطوط الاساسية للتاريخ . تلك التي نقشت في اعصابه وهو بعد صغير !!

فاذا ما انتقلنا الى التاريخ الاسلامي بالذات . وهو تاريخنا .
والزاوية التي يجب ان ننطلق منها لفهم تاريخ العالم .. التاريخ
الاسلامي الذي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات اصيلة
تهبه شخصية مستقلة . والذي يعبر اكثر من غيره عن حصيلة
اعظم لقاء بين السماء والارض . وعن طموح الانسان المؤمن
لاعادة سير التاريخ في مجراه الطبيعي ، وانطلاقه نحو هدفه
المرسوم في الكون .. التاريخ الذي يصور لنا الجهود العملاقة
التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع
في اطار واحد : الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والطبيعة
وما وراء الطبيعة ، والمادة والروح .. ويفتح امام الانسان
الطريق لتقديم اقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير
متأرجحة ولا مهزوزة . حضارة تنساح فاعلية صناعها على
كل المساحات وسائر القطاعات : الاداب والفنون . والعلوم
والفلسفة ، والقانون والنفس والاجتماع .. وتنبثق عن ايمان
عميق بدور الانسان في الكون ، وهدفية فاعليته وتوازنها .. اذا
ما انتقلنا الى هذا التاريخ .. فماذا نرى ؟!
عددا هائلا من الطلاب يتخرجون وهم لا يعرفون المعالم
الاساسية التي تميز تاريخهم . ولا السمات الاصيلة التي تطبع
حضارتهم .. وهم يجهلون التصور الذي يقوم عليه هذا التاريخ .
وتنبثق عنه هذه الحضارة .. يتخرجون وقد التبست في اذهانهم
معالم كل التواريخ . وتداخلت سمات كل الحضارات .
وضاعت مفاتيح التفسير التي تقدم لكل تاريخ معناه : ولكل

حضارة مفهومها العميق .. يتخرجون وليس في نفوسهم اي اعتزاز بهذا التفرد الذي يتميز به تاريخهم وحضارتهم ؛ ولا في ثقافتهم تلك القيم التي تتيح لهم استقلالا في التحليل والتفسير. الذين ينبثقان عن المفاهيم التي يتميز بها هذا التاريخ وهذه الحضارة.

ليس هذا فحسب، بل هناك الاهداف المرسومة بخبث ودهاء. والتي فرضت عليهم ان يتلقوا تاريخهم وفق مناهج التفكير والبحث الغربية. هذه المناهج التي لا يمكن بحال ان تقدم تفسيرا معقولا شاملا لتاريخنا الاسلامي. فهي ان نجحت في تفسير وتقييم التاريخ الغربي. فستخفق حتما في تفسير التاريخ الاسلامي. ذلك انها مناهج لا تقوم على اساس متوازن ينظر الى القيم المادية والروحية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ. بل على العكس. تسعى بدافع من علمانيتها الى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ. بل طمسها احيانا. وانكارها اساسا كعوامل فعالة في تاريخ البشرية.

وهذه المناهج - ثانيا - تقدم تاريخ العالم كله، وبضمنه تاريخنا نحن. من زاوية نظر غربية اقليمية تجعل اوربا مركزا للعالم تدور حول قطبه كل المساحات الاخرى في الارض، وما عليها من شعوب ودول وحضارات، حيث تغدو في معظم الاحيان اشبه بالظلال الباهتة لهيكل التاريخ الاوربي العالي الذي يشع نورا واهمية وبهاءاً !! ولنستمع الى «محمد اسد» وهو يعلق على هذه الرؤية القاصرة في كتابه «الطريق الى مكة» قائلا «لقد مال المفكرون والمؤرخون الاوربيون، منذ عهود اليونان

والرومان . الى ان يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الاوربي ؛ والتجارب الثقافية الغربية وحدها . اما المدنيات غير الغربيه ، فلا يعرف لها الا من حيث ان لوجودها ؛ او لحركات خاصة فيها ، تأثيرا مباشرا في مصائر الانسان الغربي . وهكذا فان تاريخ العالم - وثقافاته العديدة . لا يعدو ان يكون - في اعين الغربيين - تاريخا موسعا للغرب . وطبيعي ان النظر من هذه الزاوية الضيقة لابد ان يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم . ان الاوربي . او الامريكي العادي مما اعتاد ان يطالع من الكتب التي تعالج او تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسيط وتوسع يصفيان عليها الوثا حية . دون ان تلقي على سائر اجزاء العالم سوى نظرات عابرة هنا وهناك - ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر الى الوهم الخادع الذي يصور ان الخبرات الثقافية الغربية . ليست اسمى من سائر الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب ، بل لا تتناسب معها على الاطلاق وبالتالي ان طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن ان يتخذ مقياسا للحكم على سائر طرائق الحياة ، وان كل مفهوم ثقافي او مؤسسة اجتماعية او تقديم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي ، انما ينتمي - حتما - الى درجة من الوجود ادنى واحط . ومن هنا نرى ان الغربي ، تمثلا باليونان والرومان . يحب ان يعتقد ان جميع تلك المدنيات ليست ، او لم تكن ، الا تجارب متعثرة في طريق الرقي ، هذا الطريق الذي تتبعه الغرب بكثير من السداد

والعصمة من الخطأ . او انها في افضل الاحوال ـ كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة ـ ليست اكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد ، آخره ـ غير شك ـ المدنية الغربية » . «١»

وما من شك في ان ابسط مفاهيم التعليم التاريخي هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وامتهم وحضارتهم . شاعرين في قرارة نفوسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الامم والتواريخ والحضارات. لا سيما وان الشرق عامة . والامة الاسلامية خاصة ، تمثل في حضاراتها لقاءات معطاءة بين السماء والارض ؛ وتنبثق في معظم الاحيان عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وان هذه النقطة بالذات هي ما يجب ان توضح دائما في عملية التعليم لكي تغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء . وابعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الاخرى ، وقطع الطريق على اية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء .

وهذه المناهج ـ ثالثا ـ وعندما تدرس تاريخنا بالذات ، تتحكم فيها عصبيات شتى : ورواسب نفسية ؛ ومخلفات ثقافية تاريخية ، واطماع سياسية واقتصادية ، وتحزبات دينية وعرقية . لكونها نشأت وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار القديم للعالم الاسلامي المتعب اوجها ، وراحت

---

١ لويبولد فايس (محمد اسد) الطريق الى مكة، ط ١ ؛ ص ١٧–١٨ ، ترجمة عفيف بعلبكي

موجة الصليبية الثانية تثأر لما لحقها من هزائم في الموجة الاولى. تثأر على مستوى الفتوحات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وعلى مستوى الافكار حيث برز الى العالم عدد كبير من المؤلفات ، تميزت جميعا بروح التعصب الصليبي والعرقي الذي يسودها ، وسعت جميعا الى تقديم التاريخ الاسلامي في اطر واشكال تختلف اساسا عن حقيقته وجوهره الاصيل . ولنستمع الى « محمد اسد » مرة اخرى وهو يحلل هذه المواقف الفكرية المتعصبة تجاه اوطان غدت في نظر الصليبية الثانية اراض موات يجب احياؤها لصالح الكنيسة والدولة الغربية .. انه يقول : « اما فيما يتعلق بالاسلام . فان الاحتقار التقليدي اخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول الى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوربا والعالم الاسلامي (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر . ثم اصبح احتقار الاسلام جزءا اساسيا من التفكير الاوربي . والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الاسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقفه الاوربيين من « الوثنيين » . غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر . مع ان علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير . ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها . اما تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها

الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول . في عقول الاوربيين » «٢».

ومن ثم . فان تطبيق هذه المناهج في دراسة التاريخ الاسلامي في جامعاتنا قد أتى ثماره المرة منذ اول جيل خرجته هذه الجامعات . وسيظل يقدم هذه الثمار الى ان يحدث المؤرخون الجامعيون انقلابا جذريا في الاسس التي يعمل بموجبها داخل هذه الجامعات . وبخاصة في الفروع الانسانية . جيل بعد جيل من الشباب . يتخرجون وهم يمقتون تاريخهم . وتتغلغل الشبهات في اذهانهم وتفوسهم فتحيل التاريخ الاسلامي ساحة مظلمة يسيطر عليها الجهل والطغيان والقتل والظلم الاجتماعي . .

وان المصاب ليزداد فداحة عندما نتذكر ان مناهج الفكر الغربي تمكنت ان تنقل مآسي التاريخ الغربي الى الشرق الاسلامي فتزرعها في قلوب ابنائه . وتحيل اليهم ان تاريخ الغرب – لا سيما في عصوره الاخيرة – لم يعرف هذه المآسي في يوم من الايام .

كيف يتم القضاء على هذه الاخطاء التي تمارس في تدريس التاريخ ؟ وعن اي طريق يمكن تخريج طلاب يستطيعون ان يناقشوا ويحللوا ويقارنوا . اعتمادا على خلفية ثقافية واسعة . وامكانية في التنسيق والتأليف ؟ وبأية مناهج نتمكن من تقديم التاريخ الاسلامي على حقيقته دون اعتساف او تشويه ؟

ان لكل باحث او مرب او مدرس للتاريخ امكانية ايجاد الحلول لمشاكل كهذه . الحلول التي تخرج فروع التاريخ من الدوامة

---

٢ محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ، ط ٦ ، ص ٦٠-٦١ ، ترجمة عمر فروخ

التي تدور فيها . وتحطم الحلقة المفرغة التي تحيط باجيال المتخرجين .. وهاهي بعض هذه الاقتراحات التي يمكن ان يضاف اليها الكثير فيما بعد :

١ - هناك ساعات محدودة للمحاضرات يجب الا تضيع بالقاء الدروس على طريقة التدريس الابتدائي او الثانوي .. يكلف الطلاب بتحضير صفحات ثلاث او اربع . ثم يسألون عنها في المحاضرة التالية . وبعد ان تغدو عشرين او ثلاثين صفحة يمتحنون بها . وتقدر درجاتهم ومستوياتهم اعتمادا على مدى سيطرتهم على مزيد من سطور هذه الصفحات العشرين .. صحيح ان حفظ تسلسل الاحداث والسنين والحدود الزمنية والمكانية لكل دولة او امارة . يعد قدرة مهمة يجب ان ينميها الطالب . وبخاصة في فرع التاريخ الذي يحتاج الى تمرين « الحافظة والذاكرة » الى حد كبير باعتبارهما المفتاح الاساسي لسجل التاريخ الحافل بالاحداث والسنوات والتشكيلات . الا ان الامر يجب الا يقف عندهذا الحد لا يتعداه .. ان هذه الطريقة المتبعة . سخرية مرة نضحك بها على انفسنا وعلى طلبتنا من اجل ان نبذل جهدا اقل . ومن اجل ان يضمنوا هم مستقبلا ومعاشا .. ان هذه الساعات المحدودة للمحاضرات يجب ان تستغل الى الدرجة القصوى . وان تحطم فيها طريقة الاعتماد على كتاب واحد او مجموعة من المحاضرات المطبوعة او المكتوبة .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد نقاشا مستمرا بين الطلبة والمدرس . وبين الطلبة انفسهم افراداً ومجموعات . نقاشا يتميز بالحرية والتنظيم

في وقت واحد . بحيث يجد كل طالب المجال لان يتكلم ويناقش ويعبر عن وجهة نظره . ويصدم بافكاره افكار الاخرين . ويقدح - كما يقولون - الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد عرضا حيويا للتاريخ : فيه التحليل والمقارنة والهدم والبناء والتجميع والتنسيق . وفيه النظرة الشاملة والرؤية الواسعة التي تجمع الاحداث المتشابهة من هنا وهناك .. من الشرق والغرب . ومن العصور القديمة والحديثة لكي تسلكها في وحدة معينة تعطي للتاريخ معنىً . ولدوافعه واهدافه مبررات وقيما . وتمكن الطالب من تنمية القابلية على التصور التاريخي والنظرة الشاملة . واتخاذ موقف شخصي اصيل من الاحداث .

ان هذه الساعات يجب ان تشهد اعتمادا غير متكلف على شتى فروع المعرفة التي تمت بمساس بالتاريخ ، من علوم وفنون وآداب ، وقضايا نفسية وجسمية واجتماعية ، لكي يكون لدى الطلاب القاعدة والادوات التي يتمكنون بها من تقديم تفسير اوسع واعمق للتاريخ ؛ ومن امتلاك رؤية اشد تركيزا لاحداثه ووقائعه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد اغراءا بمزيد من القراءات والمطالعات في شتى المعارف والعلوم . وان تعرض على الطلبة خلالها المؤلفات والنشرات والكتب التي تتدفق على المكتبات كالسيل . وان تقدم لهم عن كل منها خلاصة تتيح لهم معرفة ما يجب ان يقرأوه وما يجب ان يدعوه .. ان هذه الساعات يجب ان تشهد تنمية التفكير المستقل

لدى الطالب . والذاتية المعتزة بامكاناتها دونما اسراف . تنمية تتيح للطالب ان يناقش المدرس فيما لا يؤمن به وان ينقد الكتاب المقروء كمعطيات تحتمل الخطأ والصواب ، لا كقيم منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. كما يجب ان تشهد هذه الساعات بعثا للذوق الفني والادبي لدى كل طالب بحيث يستطيع ان يحكم من خلاله على الاساليب التي يكتب بها التاريخ . ايها أجمل واروع . وايها اكثر ملائمة لكتابة التاريخ اوعرض الشخصيات .. وان تناقش – في هذه الساعات – حتى قضايا الموسيقى والفنون التشكيلية لانها في حقيقة الامر رصيد من رصيد التاريخ ، ووسيلة من وسائل التعبير الذاتي للانسان . هذا التعبير الذي يعطي للتاريخ لونه . ويطبع الحضارات بطابعه الخاص .

خلاصة الامر ان هذه الساعات المحدودة يجب ان تستغل لتكوين الانسان المثقف ، والمؤرخ الذي يستطيع ان يسهم – بامكاناته المرنة الواسعة – في مجرى التاريخ .. فاذا ما قابلنا هذا بما يجري فعلا من تضييع هذه الساعات بتلقين الطلبة صفحات معدودات ، وشرحها في الدرس كلمة كلمة . وحرفا حرفا .. تبدت لنا النقيصة التي تمارسها جامعاتنا ، والزمن الذي تضيعه هباء .

٢ – هذا يعني وجوب تخصيص بعض الساعات لتدريس مواد تاريخية تساعد على تحقيق الاهداف السالفة :

أ - فمثلا يمكن تخصيص ساعة في الاسبوع لتدريس فلسفة التاريخ والحضارة التي غدت اليوم تشكل قطاعا من اهم قطاعات الثقافة المعاصرة . لانها المفتاح الحقيقي لفهم الاسس التي تقوم عليها الدول وتنشأ بموجبها المجتمعات . والمنحنيات التي تسلكها هذه الدول والمجتمعات . والنهايات التي تنتهي اليها وتسقط فيها . هذا فضلا عن ان موضوع فلسفة التاريخ والحضارة يقدم للطالب الطريقة التي يتعلم فيها استغلال ذكائه وثقافته الخاصة في تعليل الاحداث وتفسير الظواهر التاريخية . كما انها تقدم له ثقافة واسعة نظرا لما يحتاج اليه هذا الموضوع من قاعدة ثقافية واسعة .(١)

ب - ويمكن تخصيص ساعة اخرى في الاسبوع لدرس يطلق عليه « اساليب تاريخية » : باي اسلوب يكتب التاريخ ؟ وعلى اي اساس يمكن تصنيف الدراسات التاريخية الحديثة ؟ وما هي احسن الاساليب لعرض التاريخ كتابة وتدريسا ؟ وما هو المدى الذي يمكن ان نذهب اليه في الاستفادة من اساليب المدرسة الحضارية في تدريس التاريخ وكتابته ؟ وما هي اهمية المعايشة التاريخية . والتجربة الذاتية ، والرؤية الفنية في دراسة التاريخ ؟

حـ - ويمكن استغلال الساعة السالفة لتدريس الطلبة طريقة البحث التاريخي . وتنسيق المعلومات والنصوص ، وتنظيم الهوامش . وقوائم المراجع والمصادر .. الخ مما هو ضروري

---

(١)انظر على سبيل المثال : (مختصر دراسة التاريخ) لارنولد توينبي ، و (تدهور الغرب)لازوالد اشبنجلر ، و (سقوط الحضارة) لكولن ولسون .

لكل متخصص في هذا الفرع الذي هو من اشد الفروع الانسانية حاجة الى معرفة اكيدة بطرق البحث والتنسيق. ويمكن الاعتماد في هذا المجال على «التقارير والابحاث» التي يكلف بها الطلاب، لكي يعرفوا بانفسهم مواطن الخطأ والصواب في ابحاثهم. ويجب ان يؤكد في هذه الاعمال على الناحية الكيفية لا الكمية، اذ ان انجاز تقرير واحد في السنة يمكن ان يقدم من الفوائد ما لا تقدمه كتابة عدد كبير من التقارير.

٣ ـ اذا القينا نظرة على حجم المادة التاريخية التي تعطى للطلاب، خلال السنوات الاربع ـ حسب النظم المنهجية المتبعة ـ ومهما بذل المدرس من جهد لتكديس مادة اكثر في اذهان الطلبة وفي كراساتهم. نجد انها لا تكفي اساسا للالمام بالجوانب المهمة من التاريخ، ولا بخطوطه الاساسية. وهذا يعود الى خطأ هذه المناهج في التأكيد على اعطاء تفاصيل وجزئيات المواضيع المعطاة للطلاب واضطرار المدرس الى استهلاك وقته المحدود في نطاق هذه التفاصيل والجزئيات، فضلا عن ان هذه المناهج تؤكد على تدريس مواضيع مختلفة دون تمحيص للاهم فالمهم، وبالتالي فان هذا يدفع المدرس الى ربط الطلبة بمصدر واحد او محاضرة محددة، مكتوبة او مطبوعة، لكي يستطيع بساعاته القليلة تغطية كل التفاصيل المطلوب منه تقديمها للطلاب. وتخلصا من هذا الخطأ يمكن:

آ ـ تقسيم التاريخ ـ بعد دراسة دقيقة وعميقة ـ الى قسمين: قسم تعطى تفاصيله الكاملة بدقائقها للطلاب ليتعلموا الطريقة

الجزئية والنقد والاساليب التاريخية وطرق تنسيق المعلومات ، فضلا عن محاولة الالمام الكامل بالفترات الحيوية من التاريخ ، تلك التي تمثل مراكز الثقل في حركة البشرية وتطورها الحضاري. اما الاقسام الاخرى فتعطى خطوطها الرئيسية فحسب . ويكلف الطلبة بتتبع تفاصيلها ، ومحاولة فحص سماتها وخصائصها عن طريق كتابة التقارير والابحاث ، شرط ان تتداول بين الطلبة ، وتناقش معهم جميعا خلال ساعات المحاضرات او في ندوات خارجية . لا ان تبقى – كما هي عليه الان – مجرد واجب ثقيل يلقى على عاتق الطالب ، يعيده الى المدرس بعد الانتهاء منه ليأخذ عليه درجة ما ، دون ان يطلع هو ، او غيره من الطلاب على النتائج والمعلومات المهمة التي يمكن ان تستخلص من مجموع التقارير .

ب – تعويد الطلاب الاعتماد على انفسهم بالرجوع الى المصادر والمراجع واستخراج محاضراتهم منها ، ومناقشتهم فيها خلال الدرس . فليس من الصواب ان يكون اعداد المحاضرات حكرا على المدرس وحده ، اذ ان ذلك ينشيء في نفوس الطلبة الروح السلبية الاتكالية ، ويربطهم بمصادر محدودة ووجهة نظر خاصة. ان رجوع الطلبة بانفسهم الى هذه المصادر سيحقق نتائج مهمة منها اطلاع الطالب على مزيد من التفاصيل عن الفترة المدروسة . وتفهم الاساليب القديمة في كتابة التاريخ ، وتكوين وجهة نظر يستطيع بها ان يناقش المدرس وان يصل معه الى نتائج مقنعة، فضلا عن تمرسه على استخدام النظم المكتبية . ويجب ان يلزم

الطلبة بالرجوع الى هذه المصادر . لا ان يكتفي المدرس بمجرد التوجيه . وان تدخل هذه الفعالية في الامتحانات لكي يشعر الطالب بالزامها . وعلى المدرس ان يقدم في بداية كل سنة دراسية قائمة باهم المصادر والمراجع . ويسهم مع الطلبة في نقدها وتعريفها واحدا بعد آخر . والتوصل الى السمات الاساسية التي تميز كلا منها .

٤ ـ توسيع النشاطات اللاصفية : ان ساعات الدروس الاسبوعية محدودة . وهي لا تكفي مطلقا لتنفيذ بعض هذه الاقتراحات . ولابد اذن من استغلال الزمن المفتوح خارج نطاق الدروس . هذا الزمن الذي يذهب معظمه جفاء . والذي يمكن اقتطاع بعض ساعاته لاجراء لقاءات مع الطلبة في اجواء حرة لا اكاديمية . في اجتماعات وندوات وحلقات . يناقشون ويناقشون . يستمعون لغيرهم ويقولون ما عندهم . ويحاسب بعضهم بعضا على افكاره وارائه واجتهاداته . وليس من الضروري ـ ابدا ـ ان تقتصر هذه الندوات المفتوحة على موضوعات تاريخية ، بل من المستحسن ان تتعدى التاريخ الى شتى حقول الثقافة التي لها مساس بالتاريخ . والتي تنمي في الطالب سعة النظر ، وتعمل على توسيع آفاق رؤياه . وليس من الضروري ـ كذلك ـ ان تقتصر هذه الندوات على مدرس التاريخ وتلاميذه . بل يجب ان يسهم فيها طلاب شتى الفروع . واساتذة من شتى الاختصاصات ، لكي يثمر النقاش ، وتلتقي الافكار ، ويتسع مدى الرأي وآفاق الكلام . وهناك . فضلا عن الندوات .

ضرورة اخرى لا تقل عنها اهمية وهي اصدار نشرة او مجلة خاصه بالكلية او الفرع . لكي يجد فيها الطلبة مجالا للتعبير عن ارائهم . واشباع رغبتهم في البحث والكتابة . ثم هناك الافلام التاريخية والتعليمية . والنشاط المسرحي . والسفرات الطلابية التي يجب ان تأخذ مكانها جميعا في هذا الميدان .

٥ – تضعيف القيود الاكاديمية «١» : ذلك ان القيود الاكاديمية بوضعها الحالي تخنق اية محاولة للنفاذ الى اعماق التاريخ ، وفهمه كحركة حية متطورة . كفعل دائم الصيرورة . كنهر عظيم مستمر الجريان . والابتعاد عن خطأ النظر الى التاريخ كعالم جامد مسطح . واحداث عمودية يتلو بعضها بعضا . ان التاريخ يجب ان يقدم الينا وهو يموج حركة وحيوية . كمسرحية حاضرة للعيان تجعل من التاريخ «فعلا» مستمرا آخذا شتى الاتجاهات والابعاد . وليس مجرد عالم مسطح . وتقضي على فكرة الامتداد العمودي للاحداث . لكي تدفع الانسان الى تدبرها افقيا ، بكل عناصرها وابعادها . كما تدفع المؤرخ الى معايشة التاريخ . ومن ثم مد ابعاد الرؤية الى كل جوانب الكينونة الانسانية .

فعندما يعيش المؤرخ احداث التاريخ ، وينفعل بها ، فان بامكانه ان يقول لنا اشياء لا يستطيع ان يقولها لنا الاكاديميون الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير العقلي المجرد .

---

(١) انظر عن هذا الاقتراح بتفصيل ، مقال لكاتب البحث بعنوان : (نقد للاكاديمية وتأمل في التاريخ) مجلة (المثقف العربي) : العدد ١ ، شباط ١٩٦٩ ، بغداد .

وتنظيم النصوص ، وسرد المحاضرة سردا تقريريا ميتا «١». ان الدعوة الى تضعيف القيود الاكاديمية في كتابة وتدريس التاريخ لا تمثل رغبة شخصية في الحصول على مزيد من المتعة الروحية والانفعال في مجالات النشاط التاريخي المعروض بهذا الاسلوب الحي ، وانما هو امر واقع حتمي تفرضه طبيعة الوجود التاريخي نفسه ، بما انه حركة حياة نامية متطورة ، تتدفق من اعماق الوجدان البشري ، لتنساح – بعد هذا – على مساحات الزمان والمكان : ولتنشىء – من ثم – دولا واحداثا وحضارات هي نتاج تفاعل خلاق بين العقل والعاطفة ، والمادة والروح ، والوعي واللاوعي ، والمباشر واللامباشر ، والطبيعة والغيب ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية . ولا تمكن التوصل الى رؤية كاملة لهذا التدفق الحيوي الا بالاعتماد على نفس القيم والوسائل التي تصنع التاريخ وتوجهه ، ولا يتحقق النفاذ الى معنى التاريخ وهدفيته الا بافتراض هذا القاسم المشترك الاعظم بين المؤرخ نفسه والبشرية ، بين الذات والموضوع . ومن ثم فان الاستناد – في التدريس والبحث التاريخي – على العقل والمنطق فحسب ، واعتماد النظرة الخارجية ، سوف يؤدي بداهة الى تعطيل عدد كبير من القوى الفعالة في فهم التاريخ : كالفطرة

---

(١) والمعايشة التاريخية لاتستلزم احياء الحدث التاريخي اسلوباً وموضوعاً فحسب بل هي تتطلب كذلك رصيداً من التجارب النفسية والفكرية والعقيدية تساعد المؤرخ على ادراك جوهر التاريخ . ودارسو التاريخ الاسلامي بالذات يجب ان يعايشوا التجربة الاسلامية . من هنا كانت قدرة مفكر كليو بولد فايس او ديبه – على فهم التاريخ الاسلامي اكثر من قدرة مؤرخ مختص كحب . او برنارد لويس ، فليو بولد وديبه – عاشا التجربة ، اما جب ولويس فقد درساها من بعيد .

والادراك والانفعال والايحاء الذاتي والالهام .. ولماذا نلجأ الى فتح نافذة واحدة على التاريخ اذا كان بامكاننا فتح عدد كبير منها ، يوسع مدى الرؤية ، ويلقي مزيدا من الاضواء على الاحداث الداخلية التي يغطيها الظلام ؟

ان الحقائق الموضوعية التي تحفل بها «دراسة للتاريخ» لارنولد توينبي و «تدهور الغرب» لاشبنجلر و «رصيد التاريخ» لغروسيه لا يشتهان بها ، وهي نفس الحقائق التي تعرض لها مؤرخون اكاديميون امثال جب وبرنارد لويس وآربري.. الا انك تقرأ لهؤلاء ولهؤلاء فتشعر فعلا بفاصل هائل يمتد بين الطرفين . فتوينبي ورفاقه قدموا لنا التاريخ كفعل ، بينما قدمه لنا آربري ورفاقه كعالم مسطح تعرض فوقه الاحداث كقطع متراكمة من الاشياء نفض عنها المؤرخ غبار القرون . ويجدر هنا ان نشير الى العبارة الرائعة التي قالها اشبنجلر ثائرا على القيود الاكاديمية ، قال «ان ما يصنع المؤرخ الحقيقي – ليتميز عن منظف الأتربة الاكاديمي – يكمن في معرفته الفطرية للمعاني الكامنة وراء الحوادث» . (١)

ان اسهام العنصر الذاتي في دراسة اي «موضوع» ، اذا التزم حدود التفاعل الخلاق القائم على الخيال والرؤية والفطرة المدركة والموازنة بين الفن والمنطق ، وابتعد عن العاطفية والانفعال السلبي ، فان النتيجة ستكون عملا ضخما في مجال

---

(١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، ط ٢ ، ص ١٢٨ ، ترجمة انيس زكي حسن .

المعرفة . او خطوة عملاقة في مجال الحياة والتطور . وهذا لا يقتصر على الدراسات الاجتماعية الانسانية فحسب . بل يشمل النظريات العلمية الضخمة ايضا ، ولا يختص بالدراسات والبحوث فحسب بل يشمل كل الحركات الضخمة في تاريخ البشرية حيث تقف دعوات الانبياء عليهم السلام في القمة . من اجل هذا يمكن ان نجد بعض التشابه بين مفهوم توينبي للتاريخ وثورة اينشتاين في دنيا العلم «لان اينشتاين هدم فكرة القياسات المطلقة الخاصة بالمكان والزمان ، واصر على الدور الذي يلعبه الانسان الذي يقوم بالاحصائيات العلمية . واننا لنجد ان رؤيا توينبي للتاريخ تعتمد على امرين هما : قابليته كمؤرخ وخياله . ويتمثل في رؤاه رفض للمطلق وتأكيد على الشخصي .. وهو يصر قائلا ان المفكر يجب ان يظل مستقلا جهد امكانه ». «١» والرؤيا التاريخية في نظر توينبي هي «نظام متعمد لتمرين الخيال على المشاركة الشخصية في التاريخ» وهذا يذكرنا بابطال الفكر الصوفي في التاريخ الاسلامي : ذي النون المصري والحارث المحاسبي والبسطامي والجنيد والشبلي والغزالي والجيلاني والرومي والشيرازي وغيرهم ، أولئك الذين تمكنوا - عن طريق نظامهم القاسي في تمرين الخيال والفطرة المدركة والطاقة الروحية - من المشاركة الشخصية في رؤية جوانب رائعة من الملكوت . وتقدم لنا تراجم حياتهم وكفاحهم قصصا رائعة واحداثا روحية

---

(١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ، ص ١٦٠ .

عظيمة تتحدى منطق الحس والمادية . وتجتاز بالانسان حدود الملموس الى ساحة الباطن والروح .

اما اشبنجلر فقد تمكن - هو الاخر - من تحطيم القيود الاكاديمية بالتزام ابعاد ثلاث في مجال العمل التاريخي . يتمثل اولها بهذه الثقافة الشاملة والذهنية الواسعة التي كان اشبنجلر يتمتع بها . والتاريخ لا يدرك الا بذهنية كهذه ؛ بما انه تجربة عطاء في شتى مجالات المعرفة والحركة الانسانية . ويتمثل ثاني هذه الابعاد بالرؤية الموحدة للتاريخ ؛ لان حصر النظر في حدود التفاصيل والجزئيات يفقد المؤرخ القدرة على فهم التاريخ بما انه حصيلة سنن ثابتة تحكم الطبيعة والانسان والعالم . ويتمثل ثالثها بتحطيم الحواجز الخارجية للعقل والمنطق - المادي وفتح المجال امام القوى الروحية للانسان في تقييم التاريخ - كالفطرة المدركة . للنفاذ الى اعماق جديدة للتاريخ واستبطان معناه . وهذا يعني ايضا ان على المؤرخ اللا اكاديمي ان يحيل التاريخ الى عملية حيوية ويخلصه من التجريد ؛ ان يدخل الى صميم الحدث . لا ان يقف خارج الاسوار وينظر من بعيد . وهذا البعد الاخير على درجة كبيرة من الاهمية ؛ لان التاريخ ليس حصيلة احداث خارجية فحسب . بل هناك القوى الداخلية والطاقات الروحية التي تمثل دائما العامل الاهم في رسم مجرى التاريخ وتحديد مصيره , وهنالك القوى الغيبية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر او غير مباشر ، والحكمة الهية بعيدة المدى ، لتوجيه التاريخ

وجهة دون اخرى . وفهم التاريخ لا يتم اذن الا باسهام الطاقات الروحية والحيوية للانسان في عملية التقييم .

خلاصة الامر - فيما يتعلق بالتدريس كذلك - ان المدرس يجب ان يعرض التاريخ بهذه الحيوية وهذا التدفق ، وان يقدمه للطلاب كمسرحية حاضرة للعيان - كما يقول الناقد البولندي المعاصر : يان كوت - لا كفعل مسطح ، لان المدرس بهذا سوف يحرك وجدان الطلبة : ويفتح في اعماقهم نوافذ جديدة تشدهم الى التاريخ . وتعطيهم امكانية تسليط مزيد من الاضواء على ظلمات التاريخ لادراك معناه . ان هناك طلبة يمتلكون معرفة فطرية لمعاني الكامنة وراء الاحداث وان على المدرس ان ينمي هذه القدرة ، لانه بهذا سوف يتيح للشرق ان يشهد في يوم من الايام دراسات تاريخية عملاقة كتلك التي قدمها توينبي واشبنجلر وغيرهما . كما انه بهذا يؤكد على القيم الروحية في فهم التاريخ ، ويحطم الجدران المادية الضيقة التي تخنق الدراسات التاريخية وتمنع من النفاذ الى الاعماق .

فاذا ما انتقلنا - بصدد اقتراحاتنا هذه - الى التاريخ الاسلامي بالذات فهناك ثلاث اقتراحات على الاقل :

١ - تطبيق منهج اسلامي دقيق في دراسة تاريخنا ، يمتلك من الامكانات ما يستطيع بها ان يتوغل الى اعماق هذا التاريخ ، ويستبطن معناه ، ويحلل دقائقه ويحدد معالمه الرئيسة ، ويستكنه الاهداف التي كان - ولا يزال - يصب

طاقاته في بحرها العظيم.. ان هذا التاريخ يختلف عن غيره اساسا لانه يمثل اوسع واعمق تعبر عن تاريخ ينبثق عن دين عظيم ، وعن حضارة يبعثها لقاء خلاق بين قوى السماء والارض . ان هذا التاريخ لم تسهم في صنعه فاعلية دون فاعلية ، ولا دفعه الى الوجود عنصر دون عنصر ، او عامل دون عامل ، انه يتميز بانه نتاج كل القوى والعوامل والطاقات التي اودعها الله في الكون والعالم ، والتي منحها للانسان.. لذا فاننا نجد في هذا التاريخ قوى المادة والروح والطبيعة والغيب . والتراب والحركة ، والقدر والحرية ..وان تطبيق اي منهج قاصر في دراسة هذا التاريخ : من شأنه ان يغفل احد هذه العوامل ، سيؤدي ولا شك - الى فهم ناقص ، وتحليل مضطرب لمعنى هذا التاريخ وطبيعة مجراه ,

ان المهندس الميكانيكي لا يطلب منه رسم تصميم لعمارة شاهقة ، وعالم الفيزياء لا يجازف باقامة جسر على نهر عظيم ، والمهندس المعماري ، بدون ادوات الرسم ومستلزماته ، لا يستطع تجسيد ما في مخيلته من مساحات وابعاد !! وهكذا فان تطبيق المنهج المادي ، العلماني ، الغربي في دراسة تاريخنا احدث من الاخطاء والمهازل ما يجب علينا ان نوقفه عند حده ، وان نبدأ - نحن - من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الادوات والامكانات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ولا ريب ان من اهم سمات هذا المنهج انه منهج شامل

لكل الدوافع والقيم التي تصنع التاريخ : غير عاجز امام حدود الواقع الملموس الظاهر للعيان . ويتيسح من الرؤية البعيدة ما يستطيع المؤرخ معها ان يقدم تقييما أصيلا لاحداث التاريخ الاسلامي وشخصياته . ان تاريخنا الاسلامي بحاجة ماسة الى طبقة جديدة من المؤرخين : يعيدون تحليل هذا التاريخ وعرضه بكل حيويته وتدفقه ؛ وعناصره الظاهرة والباطنة : مما سيتيح — بلا شك — فهما اعمق لهذا التاريخ . وادراكا اشد تركيزا لعناصر تطوره . ورؤية اكثر وضوحا لخطوط سيره ومنعطفاته الفاصلة . لقد عثر التاريخ الاوربي — كما رأينا — على مؤرخين اعادوا اليه الحياة : وقدموه في اطار حي كصورة فنية رائعة بكل عناصرها : الخلفية والتكوين ؛ والاضواء والظلال ، والالوان والمساحات . ومن زاوية عرقية اقليمية : او مذهبية متعصبة . قدموا تاريخ العالم . ونحن نلمح في صورهم الشاملة هذه اغفالا متعمدا — او غير متعمد — لمساحة من اهم مساحات التاريخ البشري ، تلك التي يحتلها التاريخ الاسلامي الذي يتصف — اكثر من غيره — بان بناءه قام على كل عناصر تقويم الانسان والعالم . ومن ثم فان عرضه وتفسيره لا يتم الا وفق منهاج حي شامل . وحينذاك سيجد التاريخ الاسلامي مفتاحه الضائع الذي ما حاول الاكاديميون يوما الدخول الى التاريخ الاسلامي من بابه الواسع المفتوح .

٢ — تخصيص عدد من المحاضرات لتدريس « علم الرجال »

او ما يسمى في مصطلح الحديث باسم «علم الجرح والتعديل».
ذلك انه ما من امة في الارض عنيت بتمحيص مصادر اخبارها وتاريخها كالامة الاسلامية . فهناك تراجم لنصف مليون رجل اسهموا جميعا في تقديم الاخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والاخذ بها الا بعد فحص اولئك الرجال الذين تناقلوها . ومن ثم فان دراسة التاريخ الاسلامي دراسة جادة ، تستلزم حتما دراسة هذا الموضوع الخطير ، لكي تقدم الدراسات التاريخية معتمدة على اوثق المصادر وادق الاخبار . وسوف تؤدي هذه المحاضرات الى نتيجتين هامتين اولاهما : غرس الاعتزاز في نفوس طلبتنا بتاريخهم الاسلامي ، الذي يتفرد — دون غيره من تواريخ العالم — بهذه العلمية وهذه الدقة وهذا التمحيص .

وثانيتهما — وهي على درجة كبيرة من الاهمية — تعويد الطالب المتخصص على عدم التسليم بكل ما يعرض له من روايات ، ومنحه الادوات التي يستطيع بها ان ينقد وان يأخذ ما يراه صحيحا ، ويدع ما دون ذلك . وفي هذا يستطيع ان يقدم لنا ورفاقه ، بعد تخرجهم ، دراسات صحيحة خالية من كل الدسائس والسموم التي نفثتها القوى المضادة في تاريخ الاسلام ، وبخاصة المجوسية .

ولابد من الاشارة هنا الى الملاحظة القيمة التي ابداها «محب الدين الخطيب» حول هذا الموضوع ، فهو يشير الى ان تاريخ الطبري العظيم لا يمكن الانتفاع بما فيه من الاف

الاخبار الا «بالرجوع الى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل. وان كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي، ومتى يجوز الاخذ برواية المخالف. ولا نعرف امة عني مؤرخوها بتمحيص الاخبار، وبيان درجاتها، وشروط الانتفاع بها، كما عني بذلك علماء المسلمين. وان العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الاسلامي. اما الذين يحتطبون الاخبار باهوائهم، ولا يتعرفون الى رواتها، ويكتفون بان يشيروا في ذيل الخبر الى الطبري: رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني، ويظنون ان مهمتهم انتهت بذلك، فهؤلاء من ابعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الاسلامي من الوف الاخبار. ولو أنهم تمكنوا من علم «مصطلح الحديث»، وانسوا بكتب الجرح والتعديل واهتموا برواة كل خبر، كاهتمامهم بذلك الخبر، لاستطاعوا ان يعيشوا في جو التاريخ الاسلامي، ولتمكنوا من التمييز بين غث الاخبار وسمينها، ولعرفوا للاخبار اقدارها بوقوفهم على اقدار اصحابها» «١». والطبري نفسه يقول في مقدمته «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه، من اجل انه لم يعرف له وجها صحيحا، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وانما اني

(١) المراجع الاولى في تاريخنا، مجلة الازهر، المجلد ٢٤، ج ٢ ص ٢١٠، صفر ١٣٧٢ ه.

من بعض ناقليه الينا ، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادي علينا » ! !

٣ ـ وعدد آخر من المحاضرات يجب ان يكرس لتدريس الطلبة ما يسمى بـ « تحليل النصوص » او « النصوص التاريخية » يكلفون خلالها بدراسة وتحليل نصوص من مختلف المؤلفات التاريخية القديمة ، واجراء مطالعات في هذا المجال داخل الدرس ، لتمكين الطلاب بذلك من التمرس على قراءة وفهم تلك الاساليب ، التي يتخرج الكثيرون منهم وهم لم يعتادوها ويألفوها ، الامر الذي يبعدهم نفسيا عن الرجوع الى الموارد الاولى للتاريخ ، والاكتفاء باعتماد ومطالعة المراجع الحديثة لسهولة اسلوبها ووضوحه . وهذا يشكل « بالطبع » اشد الاخطار على اية دراسة تاريخية . هذا فضلا عن ان الطلبة سيزداد تمرسهم على الاساليب القديمة بما سيكلفون به من كتابة تقارير ، واعداد محاضرات تضطرهم الى الرجوع للمصادر القديمة . ولا ريب ان التمرس على هذه الاساليب هو الوسيلة الوحيدة لفهم النص التاريخي واستبطان معناه ، وعدم الوقوع في اخطاء فاضحة كتلك التي وقع فيها بعض المستشرقين نتيجة عدم فهمهم بعض الكلمات والنصوص . «١»

بهذا تتمكن جامعاتنا من تخريج الطالب الذي يجد في نفسه من الامكانات والدوافع والاغراءات ، ما يجعله يقوم بنفسه ، لا بالاطلاع على مزيد من مساحات التاريخ فحسب ، بل بتوسيع مطالعاته في شتى الاتجاهات ، وتقديم دراسات وبحوث تغني المكتبة التاريخية ، وتزيد من رصيد الفكر التاريخي .

---

(١) انظر : فتحي عثمان : اضواء على التاريخ الاسلامي ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .